

الشنا فسل لدولى فى جنوب البحر الأحمر
فى النصف الأول من القرن التاسع عشر
للدكتور فاروق عثمان (أباظلم)

أستاذ التاريخ الحديث المساعء

بكلية الشريعة واللغة العربية بالقصيم

التنافس الدولي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر^(١)

من أهم النتائج التي أسفر عنها استقلال الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل الربع الأخير من القرن الثامن عشر، ظهور التدخل الأمريكي في أسواق التجارة الشرقية في المحيط الهندي عامة والبحر الأحمر على وجه الخصوص. تلك الأسواق التي احتكرها الأوروبيون منذ مطلع العصور الحديثة، وكاد الانجليز - بصفة خاصة - ينفردون بالسيطرة عليها^(٢) عندما بدأت الطلائع الأولى للتدخل الأمريكي هناك في الظهور. إذ بدأ بعض المغامرين الأمريكيين في أوائل القرن التاسع عشر يحومون حول المحيط الهندي الذي كان يمثل بخيراته «وعاء العمل» الذي طالما اغترف منه البريطانيون وكادوا يحتكرونه لأنفسهم احتكارا كاملا.

ولهذا فإن البريطانيين سيقفون حائلا دون هذا التدخل الأمريكي في أسواق التجارة الشرقية في المحيط الهندي عامة والبحر الأحمر على وجه الخصوص، بعد أن شكل منافسا خطيرا لهم في هذا الميدان الهام.

أثر الصراع البريطاني الأمريكي على أسواق التجارة الشرقية:

ولا شك أن هذه المنافسة الأمريكية كانت انعكاسا طبيعيا للصراع البريطاني الأمريكي قبيل استقلال الولايات المتحدة الأمريكية وفي أعقابه كما أنها كانت تعبيراً عن المعاناة البالغة التي أحس بها الأمريكيون وهم يسعون إلى نيل استقلالهم وإلى بناء

(١) قدمت هذه الدراسة في ندوة «البحر الأحمر في التاريخ» التي أقامها فرع الدراسات العليا للتاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس في الفترة من ١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩م.

(٢) Graham, G.S: Great Britain in the Indian Ocean 1810 - 1850, pp. 282, 287.

دولتهم ودعم مستقبلهم في شتى المجالات. فرغبة الولايات الانجليزية في أمريكا الشمالية في الحصول على الاستقلال عن إنجلترا توفرت بعد معاناة بالغة تزايدت درجتها نتيجة لفرض قوانين الملاحة: *Navigaion Acts* (١٦٥١ - ١٦٦٠) التي أضرت كثيرا بمصالح تلك الولايات^(٣).

فعلى الرغم من أن الغرض من اصدار قوانين الملاحة لم يكن يقصد به الاضرار بالمستعمرات الانجليزية في أمريكا الشمالية، ولكنه كان قبل كل شيء يقصد به العمل على تقوية البحرية البريطانية، وتوجيه ضربة قاضية للبحرية الهولندية، ولكن هذه القوانين أضرت بالمستعمرات المذكورة اضرارا بالغا^(٤)، ثم جاءت بعد ذلك محاولة البريطانيين احتكار التجارة الأمريكية، فزاد غضب سكان المستعمرات الانجليزية الأمريكية بطبيعة الحال.

ولهذا فقد تآقت الولايات الأمريكية للاستقلال عن حكومة إنجلترا، لا سيما وأن ظروفها الداخلية، وبعدها عن إنجلترا^(٥) قد خلق الرغبة القوية لديها للاستقلال، هذا فضلا عن أن حكام تلك المستعمرات كانوا في كثير من الأحيان من المغامرين الذين لا ذمام لهم، فتجاهلوا القوانين، وامتدت اليهم يد الفساد والرشوة، وطمعوا عليهم الجشع فساءت ادارتهم، وارتفعت الشكوى قوية منهم.

بل وحتى بعد قيام ثورة عام ١٦٨٨ في إنجلترا حل البرلمان الانجليزي محل الملكية في الاشراف على المستعمرات، ولكن المصالح التجارية لأعضاء البرلمان لم تعمل على تحسين الحالة بل زادت سوءا.. فعمل البرلمان على تضيق حرية المستعمرات من الناحية الاقتصادية، وبدأ أولا في الأصرار على تنفيذ قوانين الملاحة، ثم حرم قيام صناعات في المستعمرات تنافس الصناعة في إنجلترا. بل انه أوقف كذلك التجارة المربحة بين

(٣) محمد مصطفى صفوت (دكتور): الجمهورية الحديثة، ص ٤٣.

(٤) محمد محمود السروجي (دكتور): سياسة الولايات المتحدة الخارجية منذ الاستقلال الى منتصف القرن

العشرين، ص ١١.

(٥) حسن صبحي (دكتور): معالم التاريخ الأمريكي ١٤٩٢ - ١٩١٧، ص ٣٩.

المستعمرات الأمريكية وجزر الهند الغربية الفرنسية^(٦)، مما أثر كثيرا في نفسية الأمريكيين.

وهنا صممت الولايات الانجليزية الأمريكية على ضرورة الاستقلال عن الحكومة البريطانية، وجاء الموقف الأوربي في النصف الثاني للقرن الثامن عشر والظروف الخارجية لانجلترا ذات أثر حاسم في مصير هذه الولايات الأمريكية، بحيث شجعت مختلف الظروف السياسية تلك الولايات على الوصول الى نيل الاستقلال. اذ كانت الحرب بين فرنسا وانجلترا في أوروبا وأمريكا الشمالية وآسيا أول خطوة في سبيل الاستقلال. فكان انتصار البريطانيين حاسما على الفرنسيين في كندا على تلال ابراهام، تلك التلال التي بدأ عليها تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ساهم سكان هذه الولايات بنصيب كبير في طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية بحيث تلاشى الخطر الفرنسي ولم تعد الولايات الانجليزية الأمريكية بحاجة لا لحماية البريطانيين، ولا لاستمرار بقائهم في العالم الجديد. اذ كانت تلك الولايات لا تجرؤ على القيام بثورة صريحة ضد انجلترا طالما كان الخطر الفرنسي موجودا في كندا وفي غربي هذه الولايات. ومعنى ذلك أن تلك الولايات كانت في حاجة الى قوة الأسطول والجيش البريطانيين لدفع ذلك الخطر الفرنسي. ولكن عندما انسحب الفرنسيون من شمال أمريكا وفقا لمعاهدة باريس سنة ١٧٦٣، وبعد حرب السنوات السبع، فقد بقي البريطانيون وحدهم، مما أدى الى تقوية روح التذمر بينهم والسخط من بقائهم، وزكى ذلك الشعور لدى الأمريكيين ضرورة العمل لنيل الاستقلال.

وقد ساعدت على تنمية شعور العداء لدى الأمريكيين ضد البريطانيين أن الحكومة البريطانية لم تقنع بما كان موجودا في أمريكا من قيود على التجارة والملاحة، خاصة وأن انتصارها على الفرنسيين كان عاملا على تقوية روح السيطرة لديها. إذ فهمت الحكومة البريطانية أنها أدت خدمة كبيرة لهذه المستعمرات وغالت في تقدير مجهودها وما بذلته من تضحيات مغالاة شديدة. وكان من نتيجة ذلك الشعور أن تمادت في تقييد التجارة

(٦) محمد مصطفى صفوت (دكتور): المصدر السابق، ص ٤٤.

الأمريكية من جهة، كما صممت من جهة أخرى على فرض ضرائب جديدة على المستعمرات لكي تقوم بجزء من النفقات، هذا فضلا عن رغبتها في تكوين جيش أمريكي^(٧).

ومن الطبيعي ألا تكون هذه السياسة مرضية لسكان المستعمرات الانجليزية الأمريكية، الذين لم يتركوا أوطانهم ليجدوا الضيق والخرج في موطنهم الجديد. كما أن الكثيرين من المهاجرين كانت تجري في عروقهم دماء الحرية التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم وعن بيتتهم القديمة، والتي عملت البيئة الجديدة على تغذيتها دائما وتقويتها. ثم أن هذه المستعمرات قد وصلت بالرغم من التضيق على حرياتها الاقتصادية الى درجة كبيرة من الاستقلال في ادارة شئونها الداخلية، بحيث كانت كل منها الى حد ما جمهورية صغيرة، وعلى درجة من الثروة والرخاء المادي تدعوها الى طلب المزيد من الحرية والاستقلال.

وهكذا لم يكن غريبا أن ثارت الولايات الانجليزية الأمريكية متحدة المطالب، واحتجت بعنف على البرلمان الانجليزي، الذي لم يعد يستطيع فهم مطالبها، فضلا عن عدم تقديره لمصالحها حق قدرها.. وانتقدت هذه الولايات بجرأة وقوة موقف البرلمان الانجليزي وأنكرت بشدة ما يدعيه من سلطان على المستعمرات. ثم بدأت بعد ذلك الثورة الأمريكية المسلحة ضد سيطرة الانجليز وتسلطهم على الولايات الانجليزية الأمريكية، وأعلن الكونجرس الأمريكي استقلال الولايات المتحدة وانفصالها عن إنجلترا في ٤ يوليو سنة ١٧٧٦م^(٨).

وقد وقع على عاتق قادة الثورة الأمريكية المحافظة على الوحدة الجديدة بين الولايات الأمريكية من جهة^(٩)، وحسن استغلال الظروف الأوربية لكي تحقق مطالب

(٧) Guiteau, W.: The History of the United States, p.107.

(٨) Elson, H.W.: History of the United States of America, p.. 232.

(٩) Commager, H.S.: Living Ideas in America, p.126.

الولايات المتحدة في الحرية والاستقلال من جهة أخرى. ومن حسن حظ هذه الولايات أن الجوا الأوربي كان ملائماً للسياسة الخارجية الأمريكية. فسياسة فرنسا التقليدية في ذلك الوقت كانت تدعوها دائماً إلى القعود لانجلترا كل مرصد، كما كانت الرغبة كبيرة لدى الفرنسيين للانتقام من الانجليز. ذلك لأن فرنسا البربونيه ما كانت تستطيع أن تنسى استيلاء انجلترا على ممتلكاتها في الهند وفي أمريكا الشمالية. وقد حانت الفرصة لفرنسا في الثورة الأمريكية لطرد الانجليز بدورهم من مستعمراتهم الانجليزية الأمريكية، فقدمت فرنسا كل مساعدة ممكنة للأمريكيين الثائرين. بحيث أدت العلاقات السيئة المتوترة بين فرنسا وانجلترا في ذلك الوقت إلى توثيق الصلات ما بين فرنسا التي كانت على وشك الثورة، والولايات الأمريكية الثائرة، حتى لقد استطاع مندوب هذه الولايات في باريس أن يمهّد الطريق لعقد تحالف فرنسي أمريكي كان من شأنه أن يدعم مركز الثورة الأمريكية ويقوي جانبها. خاصة بعد أن سارعت فرنسا إلى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة، وإلى عقد حلف حربي معها في أعقاب موقعة «سراتوجا» التي انتصر فيها الأمريكيين على الجنود الانجليز في أكتوبر سنة ١٧٧٧م^(١٠).

وبعد عقد هذا الحلف بين الفرنسيين والولايات المتحدة الأمريكية فقد أرسلوا حملة عسكرية لمساعدتها، وقام الأسطول الفرنسي بقطع المواصلات بين انجلترا وقواتها في أمريكا، وأحرز بالفعل بعض الانتصارات على الأسطول الانجليزي، ثم توالى الهزائم على الانجليز في الشرق والوسط والجنوب، ونزلت بهم خسائر فادحة حين سلمت قواتهم عند «بروكتون» في أكتوبر سنة ١٧٨١م^(١١).

ولا شك أن نجاح الولايات المتحدة في سياستها الخارجية لم يكن مقصوراً على التحالف مع فرنسا، ذلك لأن السياسة الأمريكية الخارجية كانت ترمي إلى ضم كل الدول المناوئة لانجلترا إلى جانب القضية الأمريكية. وكانت انجلترا قد اتبعت في سياستها البحرية سياسة تفتيش السفن المحايدة، مما جعلها تجر على نفسها سخط كل

(١٠) حسن صبحي (دكتور): معالم التاريخ الأمريكي، ص ٧٠.

(١١) محمد مصطفى صفوت (دكتور): المصدر السابق، ص ٤٨.

الدول الأوروبية التي لها تجارة بحرية مهمة. ولذا لم يكن غريبا نجاح الأمريكيين في علاقاتهم مع هولندا وأسبانيا، وهما وإن كانتا دولتين مستضعفتين في أوروبا، إلا أنهما مدتا يد المساعدة والعون للولايات المتحدة بالأسلحة والذخائر الحربية التي ساعدتها في تحقيق النصر على القوات الانجليزية.

ولهذا فقد اضطرت إنجلترا في آخر الأمر إلى انتهاء الحرب بعد أن وجدت ألا فائدة من استمرارها بعد الهزائم الكبيرة التي منيت بها، وبذلك ظفرت الولايات المتحدة باستقلالها. ورأت إنجلترا ألا سبيل إلى إصلاح موقفها السياسي إلا بالتراضي مع ابنائها الثائرين في الضفة الأخرى للأطلنطي. وبدأت مفاوضات الصلح في إبريل سنة ١٧٨٣، ولم توقع معاهدة الصلح بصفة نهائية إلا بعد أن تقرر السلام في أوروبا بين الإنجليز والفرنسيين. وهكذا كانت معاهدة سنة ١٧٨٣ اعترافا ضمينا من جانب إنجلترا بخطأ سياستها الاستعمارية القديمة. إذ أخذت إنجلترا درسا عنيقا في أمريكا، ولذا عدلت في سياستها الاستعمارية بحيث استطاعت رغم هذه الخسارة الكبرى أن تصبح أكبر إمبراطورية استعمارية في العالم^(١٢). كما أن هذه المعاهدة حددت العلاقات الانجليزية الأمريكية لوقت معلوم، ولكنها لم تؤثر كثيرا في علاقات الولايات المتحدة بأوروبا بوجه عام.

وبعد أن فازت الولايات المتحدة باستقلالها وجمهوريتها فقد كان عليها أن توطد مركزها السياسي وألا تتورط في حروب خارجية حتى تخلق من سكان هذه الولايات المتعددة المنازع المختلفة المشارب شعبا واحدا تربطه رابطة القومية، وأن تجعل له هدفا واحدا هو استقلال الولايات واتحادها وضمان حقوقها، وكان على الولايات المتحدة أيضا أن تدعم أسس نظامها الجمهوري، كما توحى إليها بيئتها وظروفها وآمالها، وأن تحقق مبدأ حكم الشعب نفسه بنفسه وإنشاء نظم الحكم المحلية وفقا للدستور الاتحادي الديمقراطي والذي وضعته الولايات المتحدة في مؤتمر فيلادلفيا في سنة ١٧٨٧^(١٣). واستطاعت الولايات المتحدة أن تصبح مثلا حيا يحتذى في القارتين الأمريكيتين.

(١٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور): المصدر السابق، ص ٤٩.

Pratt, J.W.: A History of United States Foreign Policy, p.5.

(١٣)

وقد ساعد الولايات المتحدة على النمو في أعقاب الاستقلال انهماك أوروبا في مشاكلها المعقدة وحروبها الطويلة مع نابليون، وثوراتها المتعددة وحركاتها القومية^(١٤). كل هذا كان من شأنه أن يعطي الولايات المتحدة الأمريكية فرصة الهدوء والنمو والانتعاش واستغلال أراضيها الواسعة وثوراتها العظيمة^(١٥)، ولعل أهم الصفقات التي أجرتها أية دولة في العالم في العصور الحديثة هي صفقة شراء لويزيانا Louisiana من نابليون الأول. وبذلك استطاعت الولايات المتحدة أن تضم إليها حوض المسيسيبي أطول أنهار العالم^(١٦)، فكانت أكبر إمبراطورية استطاعت دولة شراءها. وكان ضم تلك الأراضي بالغ الأثر في حياة الجمهورية الأمريكية، فتهيأت لها الظروف للتوسع إلى المحيط الهادي، فضلا عن النشاط الذي ستمارسه أيضا في المحيط الأطلسي والهندي. ذلك النشاط الذي يهمن بالدرجة الأولى في هذا البحث، والذي وجد فيه الأمريكيون فرصتهم لمشاركة الانجليز في الاهتمام بالتجارة الشرقية، بل ولنافستهم باحتكار بعض سلع هذه التجارة على نحو ما حدث مع محصول البن اليمني المربح والهام، والذي كانت تنفرد اليمن بين دول العالم بانتاجه حينذاك. وكان الأمريكيون يقومون بنقله بواسطة سفنهم من ميناء مخا على الساحل اليمني المطل على البحر الأحمر إلى القارة الأمريكية.

وقد ظل الأمريكيون يقومون بهذا النشاط البحري التجاري المتزايد في المحيط الهندي والبحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، على الرغم من صدور «مبدأ منرو The Monroe Doctrine» في شهر ديسمبر سنة ١٨٢٣. ولا يجب أن يغيب عنا أن هذا المبدأ لم يعوق الأمريكيين عن القيام بنشاطهم البحري والتجاري المتزايد في المحيط الهندي والبحر الأحمر والبحار الشرقية بوجه عام. ولكن الدافع الأول للمناداة بمبدأ منرو هو الدفاع عن حق الشعوب الأمريكية وشعوب العالم الجديد، في تقرير مصيرها، وفي الدفاع عن حقها في الحرية والاستقلال أمام مطالب أوروبا^(١٧).

Fisher, H.,: AHistory of Europe, pp. 963, 964

(١٤)

(١٥) حسن صبحي (دكتور): معالم التاريخ الأمريكي، ص ١٠٧ - ١١٠.

American History Association - Pamphlets, No. 222., Far Western Frontiers, Essay by Harvey L. Carter, pp. 18,19

(١٦)

Pratt, J.W.: Op. Cit., PP. 79, 80.

(١٧)

ولا شك أن مبدأ منرو كان وليدا للظروف السياسية التي أحاطت بأمريكا في أواخر الربع الأول للقرن التاسع عشر. وقد وجدت الولايات المتحدة في حكومة إنجلترا، وكان على رأسها «كاننج» أكبر نصير لها في رفع علم الحرية في أمريكا الجنوبية، وإن كان هدف إنجلترا المباشر هو المحافظة على مصالحها الاقتصادية والتجارية أولا وقبل كل شيء. فلقد رأت إنجلترا أن هذه المصالح تتعرض لخطر شديد إذا عادت أمريكا الجنوبية إلى الحكم الأسباني مرة أخرى أو خضعت للحكم الفرنسي. ولما وثقت الولايات المتحدة من تأييد إنجلترا الصادق لها في مجال حماية أمريكا الجنوبية، خاصة بعد أن عملت روسيا على دفع فرنسا لترسل حملة إلى هناك، وجدت الولايات المتحدة من نفسها القوة لتنادي بمبدأ منرو^(١٨).

على أن تفوق البحرية الانجليزية، وتصميم إنجلترا على منع أي اعتداء على أمريكا الجنوبية، هو الذي جعل لمبدأ منرو قوة في أول الأمر، لأن الولايات المتحدة كانت لا تزال دولة لم تستكمل بعد قوتها، ولم تكن تستطيع لأي خطر أوربي دفعا. ويحق «لكاننج» وزير خارجية إنجلترا في بداية العشرينات للقرن التاسع عشر أن يقول «أنه عضد الدنيا الجديدة، لكي يحفظ التوازن في العالم القديم»^(١٩)، ولهذا فإن فرنسا إذا كانت قد عولت على اقرار الأمور في أسبانيا كما يشتهي الرجعيون وأصحاب مبدأ إعادة الحقوق الشرعية وكبت رغبات الشعوب، فلقد صممت إنجلترا على منعها بالقوة إذا حاولت ارسال حملة فرنسية عبر الأطلنطي والقضاء على الجمهوريات الناشئة التي أصبحت تربطها بإنجلترا أوثق الروابط التجارية. ولذا حين قررت دول التحالف الخماسي الأوربي عقد مؤتمر «فيرونا» في ديسمبر سنة ١٨٢٣ كان عزم إنجلترا على التخلي عن ذلك التحالف نهائيا، في الوقت الذي كانت رسالة الرئيس منرو في طريقها إلى أوروبا.

وعلى الرغم من أن مبدأ منرو لم تعترف به أوروبا رسميا إلا في أوائل القرن العشرين، فلا شك أنها احترمتها بالفعل في مواطن متعددة، مما جعل الولايات المتحدة في

Pratt, J.W.: Ibid., pp 81,85.

(١٨)

(١٩) محمد مصطفى صفوت (دكتور): المصدر السابق، ص ٥٣.

مبدأ الأمر بمنجاة من التورط مع الدول الأخرى الأوروبية. كما وضع أساسا ثابتا لسياسة دفاعية، بحيث أصبح المبدأ الأول للسياسة الأمريكية خلال القرن التاسع عشر على وجه الخصوص. كما عبر مبدأ منرو عن موقف الدنيا الجديدة للجمهورية بازاء العالم الملكي القديم، وحدد موقف الولايات المتحدة الامريكية الى حد كبير ازاء جمهوريات أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى. ولم يوضع هذا المبدأ حقيقة تحت الاختبار الجدي إلا في أوائل القرن التاسع عشر وطبق بنجاح في النصف الثاني لذلك القرن^(٢٠).

وجدير بالذكر أن الولايات المتحدة قد ذهبت في تفسير مبدأ منرو مذاهب شتى تطورت مع الزمن وفقا لمصالحها الخاصة. إذ كان هذا المبدأ مكونا من جزئين أساسيين، أولهما: عدم تدخل الولايات المتحدة في شئون أوروبا، والثاني: هو عدم قبول الولايات المتحدة لتدخل أوروبا في شئون أمريكا أو فرض نظامها السياسي أو الاقتصادي عليها. وكانت الولايات المتحدة تعترف بذلك التفسير طالما كانت قوتها محدودة، ومشاغلتها الداخلية والأمريكية كبيرة، ولكن حين بدأت تشعر بنمو قوتها وازدياد هيبتها الخارجية، أخذت تطبق ذلك المبدأ على أساس جزئه الثاني فقط، وهو منع دول أوروبا من التدخل في شئون أمريكا^(٢١).

ولهذا فان مبدأ منرو لم يعوق الأمريكيين عن القيام بنشاط بحري وتجاري في البحار الشرقية ومن بينها البحر الأحمر منذ أوائل القرن التاسع عشر عندما بدأوا يشعرون بمقدرتهم على تحقيق ذلك، مما سيجعلهم يشكلون منافسا بحريا وتجاريا خطيرا للانجليز في تلك البحار.

Coolidge, A.C.: The United States as A World Power, p.96.

(٢٠)

(٢١) محمد مصطفى صفوت (دكتور): المصدر السابق، ص ٥٧.

ظهور النشاط التجاري الانجليزي والأمريكي في البحار الشرقية وجنوبي البحر الأحمر

وهكذا فقد كان من أهم نتائج الثورة الأمريكية واستقلال الولايات المتحدة هو تدخل الأمريكيين في أسواق التجارة الشرقية التي احتكرها الأوروبيون منذ مطلع العصور الحديثة. إذ بدأ المغامرون الأمريكيون وفي مقدمتهم مواطني «ماسا شوستس Massachusetts» الذين كانوا يشكلوا مجتمعا بحريا نشيطا بارسال سفنهم لتعبر نصف الكرة الأرضية في أوائل القرن التاسع عشر وتتجول في المحيط الهندي وجنوب المحيط الهادي، وتصل الى شرق أفريقيا والبحر الأحمر، محاولة شق طريقها للوصول الى أسواق التجارة في تلك المناطق^(٢٢).

غير أن هذه الأسواق كانت مغلقة حينذاك بواسطة المحتكرين الانجليز عن طريق النظام التجاري الذي وضعته شركة الهند الشرقية الانجليزية «East India Company» التي أنشئت في ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠ في عهد الملكة «اليزابيث الأولى» Elizabeth^(٢٣) واحتكرت التجارة الشرقية بوجه عام^(٢٤).

وكانت شركة الهند الشرقية الانجليزية تعتبر أن التجارة اليمنية مجالا هاما من مجالات نشاطها التجاري في جنوبي البحر الأحمر، وحققت فعلا من وراء تلك التجارة أرباحا كبيرة، وذلك بواسطة الأعداد الضخمة من التجار الهنود المعروفين باسم «البانيان» في مخا والحديدة وجدة. وقد قامت الشركة بعدة محاولات مبكرة لاقامة وكالات تجارية لها في الموانئ اليمنية منذ أوائل القرن السابع عشر بدأت بارسال سفينة تجارية تابعة لها الى جزيرة سقطري الواقعة جنوبي الساحل الجنوبي للجزيرة العربية وعلى مقربة من رأس

Coupland, R.: East Africa and its Invaders, p. 362. (٢٢)

Hoskins, H. L.: British Routes to India, pp. 45. (٢٣)

Coupland, R.: Op. Cit., p. 362. (٢٤)

جورد فوي على الساحل الشرقي لأفريقيا. وكان يقود هذه السفينة الضابط البحري الانجليزي «وليم كيلنج William Keeling» الذي حاول الوصول الى عدن ليقيم وكالة تجارية فيها، غير أن البريطانيين لم يتمكنوا من تحقيق أغراضهم نظرا لوجود العثمانيين في اليمن في ذلك الحين (١٥٣٨ - ١٦٣٥).

على أن البريطانيين أرسلوا بعد ذلك الى ميناء عدن السفينة البريطانية أسنشون *Ascension* يقودها الضابط البحري البريطاني «الكسندر شاربي Alexander Sharpy» وذلك لأقامة علاقات تجارية مع بلاد اليمن^(٢٥). وقد وصل «شاربي» الى عدن في ٨ ابريل سنة ١٦٠٩، واستقبله حاكمها في بداية الأمر استقبالا طيبا^(٢٦) غير أن العثمانيين لم يلبثوا أن اعتقلوه وصادروا حمولة سفينته، ثم أطلقوا سراحه ورحلوه إلى مخا وهي الميناء الحيوي لليمن حينذاك وبذلك فشلت محاولة البريطانيين حينذاك لاقامة علاقات تجارية مع الموانئ اليمنية .

وقد عودت شركة الهند الشرقية الانجليزية محاولتها في العام التالي مباشرة في سنة ١٦١٠ فأرسلت ثلاث سفن بريطانية الى عدن يقودها «سير ميدلتون Henry Middleton Sir» فوصلت اليها في اليوم العاشر من نوفمبر من السنة المذكورة، وكان يتولى زمام الأمور فيها الحاكم العثماني جعفر باشا^(٢٧). وقد ترك «ميدلتون» السفينة الانجليزية «ببركورن Peppercorn» في عدن، وتوجه بالسفينة «دارلينج Darling» الى مخا حيث استقبله حاكمها العثماني «رجب أغا» بكل مظاهر الترحيب. غير أن هذا الترحيب لم يدم طويلا، فسرعان ما هاجم بعض الجنود العثمانيين «سير ميدلتون» وقتلوا ثمانية من رجاله، وساقوه أسيرا الى صنعاء^(٢٨)، ومعه عدد من رفاقه . كما أن العثمانيين جهزوا قوة قوامها ثلاثمائة وخمسين مقاتل عثمانيًا وحاولوا الاستيلاء على السفينة «دارلينج» غير أن بحارتها

(٢٥) Ingrams, H.: The Yemen, Imams, Rulers, and Revolutions, p. 46.

(٢٦) Playfair, R.L.: A History of Arabia Felix or Yemen, p. 105.

(٢٧) Hunter, F.M.: An account of the British Settlement at Aden, p. 164.

(٢٨) السيد مصطفى سالم (دكتور): الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨ - ١٦٣٥)، ص ٤٢٧.

استبسلا في الدفاع عنها ولم يمكنوا العثمانيين من الاستيلاء عليها رغم ما دار من قتال عنيف . وفي صنعاء أبدى الوالي العثماني تعجبه من جرأة «الصليبيين» الذين يحاولون الاقتراب من الجزيرة العربية والأماكن المقدسة الاسلامية. وبعد أن استطلع العثمانيون رأي الآستانة أطلقوا سراح «هنري» ومرافقيه، غير أنهم أنذروهم ألا يعودوا على الاطلاق إلى الجزيرة العربية^(٢٩)، فرجعوا إلى سفينتهم ورحلوا عن المنطقة بخفي حنين^(٣٠).

وقد اعقب هذه المحاولات الثلاث محاولة رابعة في سنة ١٦١٢^(٣١) عندما توجهت بعثة انجليزية يقودها القبطان «جون ساريز John Saris»^(٣٢) قوامها ثلاث سفن بزيارة ميناء مخا اليمني. وكان يتولى زمام الأمور فيها حينذاك حاكم عثماني يدعى «أدھر» وهو يوناني المولد بعد عزل حاكمها السابق «رجب أغا». وقد رحب «أدھر» بالبعثة الانجليزية وطلب من «ساريز» أن ينسى المعاملة السيئة التي لقيها «سير هنري ميدلتون» على يد سلفه «رجب أغا». وقد أصدر الوالي العثماني في اليمن في ذلك الوقت تعليمات تسمح للأجانب بحرية التجارة على السواحل اليمنية مع السفن الهندية الانجليزية، كما سمح أيضا بشراء كل ما يلزمهم من ميناء مخا اليمني^(٣٣).

وهكذا حقق الانجليز بعض النجاح في جولاتهم الرابعة نتيجة لتساهل العثمانيين معهم، ذلك التساهل الذي كان مبعثه اطمئنان العثمانيين للفتور الذي اعترى المنافسة البرتغالية من جهة، ورغبة العثمانيين في تبادل المنفعة الاقتصادية مع الأجانب ورواج الحركة التجارية في ممتلكاتهم من جهة أخرى. على أن «ساريز» وجد حينذاك أن الظروف المحيطة لا تشجع على استمرار اشتغاله بالتجارة مما دفعه الى الرحيل عن مخا بعد أن حقق هذا القدر المعقول من النجاح.

(٢٩) أحمد فضل العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص ١٠١.

(٣٠) Playfair, R.L.: Op. cit., pp. 105 - 108.

(٣١) Marston, T.E.: Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, P. 25.

(٣٢) Hunter, F.M.: Op.Cit., p. 164.

(٣٣) Playfair, R.L.: Op.Cit., p.108.

على أن التساهل العثماني مع الأجانب قد ظهر أيضا عندما عاود الانجليز نشاطهم للمرة الخامسة في سنة ١٦١٨ حين وصل الى مخا القبطان «شلنج» *Shilling* على ظهر السفينة الانجليزية «آن رويال» *Anne Royal* لاقامة وكالة تابعة لشركة الهند الشرقية الانجليزية. وفي ذلك الوقت كان يحكم مخا «رجب أغا» الذي سبق أن وقع في أسره «سير هنري ميدلتون»، غير أنه في هذه المرة قدم اعتذاره الشديد للقبطان «شلنج» عن مسلكه السابق موضحا أنه فعل ذلك تنفيذا للتعليمات التي صدرت اليه من الوالي العثماني في صنعاء. على أن السياسة العثمانية حينذاك سمحت للانجليز بمزاولة نشاطهم التجاري بحرية تامة في ميناء مخا، وبتشبيد وكالة تشرف على مصالحهم هناك، وبتحديد ضرائب الاستيراد والتصدير بنسبة ٣٪ فقط تدفع نقدا أو عينا^(٣٤). وبذلك ظل موقف العثمانيين متأرجحا ازاء محاولات الانجليز اقامة علاقات تجارية مع المواني اليمنية بين الرفض والقبول حتى استقر موقفهم نسبيا في سنة ١٦١٨ باتاحة الفرصة للانجليز لمزاولة نشاطهم التجاري في المواني اليمنية^(٣٥).

وتجدر الإشارة الى أنه مما خفف من حدة الضربة الاقتصادية الشديدة التي أصيبت بها اليمن نتيجة لتحويل طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح، انتشار زراعة البن في اليمن واستمرار تصديره لبلدان الشرق الأوسط وأوروبا عن طريق البحر الأحمر، وطريق رأس الرجاء الصالح في وقت واحد. وقد وصلت سفارة عثمانية الى اليمن في سنة ١٧١٢ للتفاهم مع الامام على أساس قصر تصدير البن اليمني عن طريق البحر الأحمر بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذي أضر كثيرا بدخل السلطان العثماني. وكانت أساليب السفارة العثمانية قائمة على أسس دينية لحث الامام على تحقيق تلك الغاية. غير أن الامام رفض الاستجابة لمطلب العثمانيين^(٣٦) الذين كانوا قد خرجوا من اليمن بعد أن مكثوا فيه قرابة قرن من الزمان (١٥٣٨ - ١٦٣٥) وذلك حفاظا على دخله الخاص.

Playfair, R.L.: Op.Cit., p.110.

(٣٤)

Crichton, A: History of Arabia, Ancient and Modern, vol.11, pp.153, 154.

(٣٥)

Marston, T.E: Op. Cit., pp. 26, 28.

(٣٦)

كما حرص الانجليز على انتهاج سياسة محددة ازاء الأئمة الزيديين بعد جلاء العثمانيين عن اليمن تركزت على مساندتهم لحكم الأئمة حتى يجدوا لهم نصيرا داخل اليمن يمكن أن يسهم في تسهيل عمليات التبادل التجاري، وخاصة ما كان يتعلق منها بتجارة البن اليمني في ميناء مخا. وقد استمرت هذه العلاقات الودية لمدة قرنين من الزمان على نحو ما يؤكد «هارولد انجرامز» موضحا أن الانجليز الذين احتلوا عدن في سنة ١٨٣٩ مدينون بالكثير لأسلافهم الذين سعوا لايجاد علاقات طيبة مع الأئمة^(٣٧).

وجدير بالذكر أن الهولنديين قد سعوا من جانبهم إلى تنشيط التجارة الهولندية اليمنية في أوائل القرن الثامن عشر، واستمرت تلك المساعي فترة غير قصيرة، وكانت تعتمد على محصول البن اليمني حتى نقل الهولنديون زراعة هذا المحصول الى جزر الهند الشرقية وجزر الهند العربية في نهاية القرن الثامن عشر كما أنتقلت زراعة البن إلى امريكا الجنوبية فيما ادى في النهاية الى ان تصبح اليمن غير منفردة بانتاج ذلك المحصول الهام^(٣٨). وقد نتج عن ذلك قلة دخل اليمن وتدهوره اقتصاديا مما زاد من حدة الاضطرابات الداخلية، الأمر الذي جعلنا نقول أن استقرار اليمن كان مرتبطا - الى حد كبير - بقدراته التجارية وخاصة فيما يتعلق بتصدير البن، حتى أن عدن وقعطة وتعز وأبو عريش أصبحت دويلات منفصلة عن بعضها وعانى الأئمة من حركات التمرد التي كانت شائعة حينذاك. وقد أكد هذه الصورة، «كارستن نيبور *Karsten Niebuhr* الرحالة الدانماركي الذي زار بلاد اليمن في سنة ١٧٦٢ في مؤلفه المشهور^(٣٩) الذي ترجم الى عدة لغات والذي ضمنه تفاصيل أول رحلة علمية جديدة قامت بدراسة جغرافية ونباتات اليمن وأحواله الاجتماعية في القرن الثامن عشر، مما وجه أذهان الأوربيين إلى أهمية اليمن حينذاك.

Ingrams , H. Op. Cit.,pp.51,52.

(٣٧)

(٣٨) عبدالحميد البطريق (دكتور): من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ - ١٨٤٠، ص ٤٦.

« قدر نيبور تجارة البن المصدرة من مواني اليمن حينذاك بما يوازي خمسة آلاف جنيه استرليني شهريا».

Karsten Niebuhr: Beschreibung Von Arabien, Copenhagen.

(٣٩)

وجدير بالذكر أن تجارة البن اليمني كان لها أثر كبير في عودة النشاط التجاري للطريق البحري القديم عبر البحر الأحمر في أوائل القرن السابع عشر، بعد أن كانت التجارة الشرقية قد تحولت الى طريق رأس الرجاء الصالح عقب وصول البرتغاليين الى الهند في نهاية القرن الخامس عشر. وقد ساعد على ذلك أن البن اليمني كان سلعة شائعة ومحبوبة في أوروبا وأمريكا على السواء^(٤٠).

وبعد أن غادر الهولنديون اليمن في سنة ١٧٦٢ وفقدوا كل أمل في استمرار وكالاتهم التجارية فيها، انفسح المجال أمام الانجليز للاشتغال بتصدير البن والتجارة اليمنية الى بلدان أوروبا، بينما كان التجار الهنود «البانيان» يحتكرون تلك التجارة داخل اليمن ذاتها ويسهلون العمليات التجارية مع الانجليز والسفن الانجليزية^(٤١).

ومن هنا حرص الانجليز على مواصلة اهتمامهم بانشاء وكالات تجارية لهم في الموالي اليمنية وخاصة بعد أن بدأ نشاطهم يظهر بوضوح في طريق البحر الأحمر ومصر نتيجة لاتفاقهم مع المماليك في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، حتى أن شركة «الليفانت الانجليزية *Levant Company*» التي اختصت بالحوض الشرقي للبحر المتوسط والتي تأسست سنة ١٥٨١^(٤٢) اتهمت شركة الهند الشرقية الانجليزية بانتهاك سيطرتها على التجارة في شرقي البحر المتوسط حينذاك^(٤٣).

وتحقيقاً لتلك الأهداف الانجليزية رأت حكومة بومباي وخاصة بعد وصول الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨ ضرورة القيام بنشاط واسع النطاق مستعينة بقواتها الهندية للسيطره على المراكز الاستراتيجية في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر للحيلولة دون أية محاولة فرنسية للوثوب الى الهند من جهة، ولحماية جهودها الرامية الى تنشيط التجارة المتبادلة مع سواحل البحر الأحمر والسواحل اليمنية من جهة أخرى، ولهذا تحركت

Waterfield, G: Sultans of Aden, P.6.

(٤٠)

Marston, T.E. Cit., P.29.

(٤١)

(٤٢) صلاح العقاد (دكتور): التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٢٨.

Marston, T.E. : Op . Cit. , pp 3132.

(٤٣)

من بومباي قوة بحرية في شهر ابريل سنة ١٧٩٩ قوامها ثلاثمائة أوربي وهندي يقودها «الكولونيل جون موراي Colonel John Murray» واتجهت نحو المدخل الجنوبي للبحر الأحمر^(٤٤). وقد قامت هذه القوة باحتلال جزيرة ميون أو بريم «Perim» الواقعة في أضيق نقطة ببوغاز باب المندب^(٤٥) الذي يصل البحر الأحمر بخليج عدن وذلك في اليوم الثالث من شهر مايو وطلت تحتلها حتى أوائل شهر سبتمبر من السنة المذكورة.

غير أن البريطانيين تبينوا أن المضائق في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر لا يمكن السيطرة عليها من جزيرة بريم بواسطة المدفعية الساحلية^(٤٦)، كما أن مناخ الجزيرة ردي للغاية^(٤٧)، وليست بها مياه صالحة للشرب^(٤٨). ولهذا سحب «موراي» قواته من جزيرة بريم خاصة بعد أن اطمأن لحسن نوايا سلطان لحج وعدن الذي أبدى موافقته المبدئية على بقاء البريطانيين مؤقتاً في عدن خلال الفترة التي يحتاجونها. وقد اتجه «موراي» بقواته الى عدن حيث استقبله سلطانها استقبالا طيبا^(٤٩). وبذل «موراي» محاولاته للتحالف مع السلطان لضمان اتخاذ عدن محطة دائمة للسفن البريطانية، غير أن هذا الموضوع تأجل الاتفاق عليه^(٥٠). واضطرت هذه القوة البحرية البريطانية أن تنتظر في عدن حتى شهر مارس سنة ١٨٠٠ لتستعين بالرياح الموسمية للتوجه عائدة الى الهند.

على أن شركة الهند الشرقية الانجليزية كانت تبذل جهودها بصفة دائمة لتنشيط التجارة المتبادلة بين سواحل البحر الأحمر وممتلكاتها في الهند، غير أن هذا النشاط التجاري بدأ يتدهور نتيجة للسياسة التي انتهجتها الدولة العثمانية حينذاك وسايرها فيها سلطان

Graham, G.S : Op. Cit., p. 287 . (٤٤)

George, H. B : A Historical Geography of the British Empire, p. 124 . (٤٥)

Playfair, R.L. : Op. Cit. , pp . 122 - 123. (٤٦)

صالح الدين الكري الياغمي: في جنوب الجزيرة العربية، ص ١٥. (٤٧)

The Middle East, Apolitical and Economic Survey, 1958 , p . 103. (٤٨)

Ingrams, H. : Op. Cit. , p. 50. (٤٩)

Aitchison, C.U : A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads relating to India and (٥٠)
the Neighbouring Countries, Vol . XI. , p. 123.

لحج وعدن. فالبن اليمني الذي كان يرسل الى أوربا والهند أخذ طريقه الى مصر أو حملته القوافل من جدة الى مكة ليجمع أخيرا في عاصمة الدولة العثمانية. بل أنه بين عامي ١٧٩٨ - ١٨٠١ اشترت السفن الأمريكية كميات كبيرة من البن اليمني وبدأت تتعامل مباشرة مع المنتجين الأصليين^(٥١). ولهذا سارعت ادارة الشركة الى ارسال « الكومودور سير هوم بوفهام *Commodore Sir Home Popham* » قائد السفينة الانجليزية «رودني *H.M.S. Rodney*» على رأس بعثة الى البحر الأحمر للعمل على احياء التجارة بين هذه المناطق وممتلكات الشركة.

بل ان حكومة الهند البريطانية كلفت «السير هوم» أيضا بمهمة نقل القوات التي كانت ستنضم لجيش «الجنرال بيرد *General Baird*» من بومباي الى مصر، وتم لها ذلك بعد أن عبرت هذه القوات صحراء مصر الشرقية من القصير الى النيل؛ وكانت قوات «الجنرال بيرد» ستتعاون مع القوات البريطانية الأخرى الآتية عبر البحر المتوسط لطرد الفرنسيين من مصر ومنع أية قوى أجنبية من السيطرة على الطريق الموصل بين الشرق والغرب عبر مصر والبحر الأحمر، وسيكون هذا التعاون بين القوات البريطانية من الشمال والجنوب ظاهرة واضحة في استراتيجية الدفاع البريطاني عن المصالح الامبراطورية منذ ذلك الحين، كما كانت هذه الحادثة دلالة على أول استخدام للبحر الأحمر من قبل بريطانيا في الأغراض العسكرية الحديثة^(٥٢).

وكانت جهود شركة الهند الشرقية الانجليزية لتنشيط التجارة مع المواني اليمنية تبدو واضحة في المحاولات التي بذلها في هذا السبيل «الدكتور برنجل *Dr. Pringle*» الطبيب البريطاني الذي عمل في بومباي ثم صاحب «موراي» في رحلته السابقة الى المواني اليمنية وأقام في مخا في سنة ١٨٠٠^(٥٣). فقد أوصل في شهر مايو من نفس السنة عدة خطابات وهدايا من الحاكم العام للهند الى علي منصور امام صنعاء^(٥٤)، لحثه على

Marston, T.E : OP. Cit. ,p. 31.

(٥١)

Marston, T.E : Op. Cit, p.32.

(٥٢)

Playfair, R.L. : OP. Cit., P. 123.

(٥٣)

Marston . T.E. : Op. Cit. pp. 32, 33.

(٥٤)

اصدار تعليماته لحكام المواني اليمنية بعدم مضايقة السفن الانجليزية عند قيامها بعمليات التبادل التجاري في تلك المواني، وتزويدها بما تحتاج اليه لمواصلة رحلاتها، وقد استقبل امام صنعاء الدكتور «برنجل» بحفاوة وتكريم، وأصدر تعليماته لحكام المواني اليمنية في مخا والحديدة واللحية لتقديم كافة التسهيلات والاحتياجات اللازمة للسفن الانجليزية بالأسعار العادية. كما تم الاتفاق على حماية البحارة على الشاطئ والمحافظة على شحنات السفن بقدر الامكان إذا جنحت أو تحطمت. وفضلا عن ذلك فقد وافق الامام على منصور أيضا على بناء مستشفى بحري في مخا لاستقبال المرضى من الأسطول التجاري الانجليزي. وقد غادر «الدكتور برنجل» صنعاء متجها الى مخا بعد نجاحه في الحصول على كل هذه التسهيلات.

وكان اهتمام الانجليز بالتجارة مع اليمن قد ازداد بعد أن نجحت المنافسة الأمريكية في أخذ معظم كميات البن المصدرة من اليمن الى خارج البلاد، ويرجع السبب في ذلك إلى الأسعار التي كانت تتعامل بها شركة الهند الشرقية الانجليزية والتي كان في مركز لا يمكنها من منافسة عروض الأمريكيين حينذاك، كما أن الضعف المتزايد للأئمة الزيديين والصراع المستمر بين القبائل اليمنية قد انعكس على انتاج البن في اليمن مما أدى إلى اضعاف محصوله^(٥٥)، ونتج عن ذلك زيادة الطلب في الوقت الذي سيقل فيه العرض الى حد كبير .

وقد استمرت جهود شركة الهند الشرقية الانجليزية لتدعيم تجارتها مع اليمن، ورعاية مصالحها في منطقة البحر الأحمر وخاصة عندما عينت «السير هوم» مندوبا لها في الجزيرة العربية في سنة ١٨٠٢^(٥٦)، ومنحته صلاحيات كاملة تمكنه من عقد المعاهدات التجارية تبعا لما تتطلبه المصالح الانجليزية. وطلبت اليه التوصل الى عقد معاهدات تجارية مع امام صنعاء وسلطان الحج وعدن على وجه الخصوص. ولهذا فقد أبحر «السير هوم» من «كلكتا» متجها الى مخا، حيث وجه بعثة الى امام صنعاء شكلها من «المستر

Aitchison , C.U. : Op. Cit. , Vol. XI. p.III.

(٥٥)

Aitchison, C. U. : Op. CIT. , Vol. XI, pIII.

(٥٦)

اليوت والملازم لامب والدكتور برنجل» لتعرض عليه اقتراح التوصل الى عقد معاهدة تجارية. غير أن الأمام رفض مواد المعاهدة المقترحة، ولم يشأ أن يزيد تعاونه عن هذا الحد حتى لا يؤدي الى التدخل الأجنبي في شئون بلاده. وقد مات «مستر اليوت» بالحمى في صنعاء بينما غادرها «الملازم لامب والدكتور برنجل» في اليوم الرابع من سبتمبر من السنة المذكورة وهما يحملان رفض الامام الى الحاكم العام للهند ومثله «السير هوم بوفهام»^(٥٧).

غير أن «السير هوم» لم يفقد الأمل في تحقيق بعض النجاح لشركة الهند الشرقية الانجليزية، فتوجه الى عدن وبذل جهوده لاقتناع السلطان أحمد بن عبدالكريم العبدلي سلطان لحج وعدن بعقد معاهدة للصدقة والتجارة. وتم ابرام المعاهدة في اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٨٠٢، وصدق عليها «السير هوم» نيابة عن «اللورد ولسلي Wellesly Lord» الحاكم العام للهند حينذاك وبناء على رغبته، كما اعتمدها الأمير أحمد باصهي أمير عدن نيابة عن السلطان العبدلي^(٥٨). وقد نصت هذه المعاهدة على إيجاد اتصال تجاري بين شركة الهند الشرقية الانجليزية أو أية رعية بريطانية تحت حكم الحاكم العام للهند ورعية السلطان أحمد بن عبدالكريم العبدلي^(٥٩). ووافق الجانبان على اعتبار ميناء عدن مفتوحا لاستقبال البضائع التي تحملها السفن الانجليزية على أن تدفع نسبة ٢٪ ضرائب جمركية لمدة عشر سنوات ترفع بعدها هذه النسبة الى ٣٪ فقط ونصت المعاهدة كذلك على حرية الرعايا البريطانيين في العمل في أراضي السلطان ونقل ثرواتهم لمن يشاءون، كما تعهد السلطان ببذل جهوده لاستعادة ديون الرعايا البريطانيين من رعاياه. وفي حالة حدوث أي نزاع بين الرعايا البريطانيين فيجب أن يرفعوا دعواهم للوكيل البريطاني في عدن ليحسمه في قضاياهم بموجب القوانين المتبعة في بلادهم. وأخيرا تعهد السلطان في هذه المعاهدة بأن يبيع لبريطانيا قطعة من الأرض غربي عدن لتقيم عليها شركة الهند الشرقية الانجليزية مبانيها بالشكل الذي تترضيه^(٦٠).

(٥٧) Playfair, R. L. :OP. Cit . pp. 124-126 .

(٥٨) أحمد فضل العبدلي: المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٥٩) Hurewits, J. C. :Diplomacy in the Near and Middle East, Vol . I.P.126 .

(٦٠) Aitchison, G.U : Op. Cit. , Vol XL; pp. 119, 122.

ومن الواضح أن هذه المعاهدة تعد بداية التدخل البريطاني في شئون عدن عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. كما أنها تنتقص من السلطة الشرعية لحكام هذه المنطقة في بلادهم، فتحدد الرسوم الجمركية بنسبة تقل كثيرا عما يتقاضاه السلطان من قبل، فضلا عن الاعتراف للوكيل الانجليزي - الذي كان لا يعدو أن يكون قنصلا لبلاده - بالتدخل في نظر المنازعات للرعايا البريطانيين في عدن ورفع نتائجها الى حكومة الهند البريطانية لتقرير ما تراه، فان ذلك كله لا يتفق مع سيادة سلطان لحج وعدن، كما يعطي الفرصة للبريطانيين للتدخل في شئون سلطنته، ولهذا فقد وصف «هارولد جاكوب» هذه المعاهدة بأنها رائعة بالنسبة للبريطانيين خاصة إذا ما أدخلنا في اعتبارنا الأطراف التي عقدتها والزمن الذي عقدت فيه^(٦١). بينما اعتبرها «توم ليتل» أول تورط لبريطانيا في جنوب الجزيرة العربية^(٦٢).

ويبدو تزايد اهتمام حكومة الهند الانجليزية بالتجارة في منطقة البحر الأحمر من خلال التصريح الذي أدلى به «اللورد فالنتينا Lord Valentia» الذي وصل الى الهند على رأس بعثة بريطانية في سنة ١٨٠٥ موضحا أهمية طريق البحر الأحمر بالنسبة للتجارة الهندية، ويؤكد ضرورة العمل على إيجاد أفضل الوسائل لتدعيم قوة بريطانيا في البحر الأحمر حتى يمكنها مواجهة أي تقدم عدائي من ناحية الغرب، هذا بالإضافة الى العمل على زيادة حجم التجارة الهندية في المنطقة، وتبعاً لذلك فقد قام «فالنتينا» بزيارة معظم الموانئ الهامة في البحر الأحمر مبتدئا بعدن، وجمع معلومات قيمة عن حالة التجارة، وأخيرا أشار «فالنتينا» الى أهمية احتلال بريطانيا لعدن التي اعتبرها «جبل طارق الشرق» وأوصى بإنشاء وكالة تجارية في عدن، وبتعيين مقيم دائم بها ليتمكن البريطانيون من احتكار التجارة اليمنية وخاصة تجارة البن الرائجة من جهة، واحتكار التجارة مع بربرة على الساحل الافريقي المواجه من جهة أخرى. بل أنه قد أوصى أيضا بالتحالف مع اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد من ناحية الشرق والأحباش من ناحية الغرب، لضمان حماية المصالح التجارية لبريطانيا في منطقة البحر الأحمر.

Jacob , H. : Kings of Arabia, p. 65.

(٦١)

Little , T. : South Arena of Conflict, London, Pall Mall, 1968 .

(٦٢)

غير أن «فالتيا» أوضح في نفس الوقت أن الحبشة لن تحقق الكسب السريع والفائدة المباشرة للبريطانيين على النحو الذي يمكن أن تحققه عدن للمصالح البريطانية، بل أنه أشار أيضا إلى أن سيطرة البريطانيين على جزيرة قمران ستتيح لبريطانيا سيطرة مباشرة على تجارة الحبشة، وكانت شركة الهند الشرقية الانجليزية ترغب في تحقيق ذلك. وقد أورد «فالتيا» كل هذه الآراء والتوصيات في تقريره المطول الذي أرسله إلى «جورج كاننج» وزير الدولة البريطاني للشئون الخارجية. ويعتبر هذا التقرير على جانب كبير من الأهمية لأنه يوضح الأوضاع القائمة في منطقة البحر الأحمر وجهة النظر البريطانية إزاءها في ذلك الحين^(٦٣).

على أن اللورد «فالتيا» قد أنهى تقريره هذا بجملته أعاد كتابتها بعد ذلك بخمسة وستين عاما «اللورد روبرت نابيير» *Lord Robert Napier* الذي قاد الحملة البريطانية على الحبشة في سنة ١٨٦٨ إذ قال: «أنه فيما يتعلق بالحبشة فإنها بلد مسيحي يجب أن يتحرر من الحكم المستبد الذي يتحكم في مقدراته، كما يجب تطويقه بعيدا عن سيطرة المسلمين، وإننا بتحقيق ذلك سنفتح سوقا رائجة لمنتجاتنا». وبذلك ولدت أسس السياسة البريطانية إزاء الحبشة، تلك السياسة التي استمرت حتى وصلت إلى هناك الحملة البريطانية في سنة ١٨٦٨، حيث ظهرت للبريطانيين الطبيعة الحقيقية للحبشة والصعوبات التي تكتنفها. وقد لقي هذا التقرير الذي قدمه «فالتيا» اهتماما كبيرا لدى المسؤولين بوزارة الخارجية البريطانية^(٦٤).

وعلى أية حال «فان فالتيا» أرسل أخيرا سكرتيه «هنري سولت *Henery Salt*» في بعثة إلى الحبشة عاد بعدها يوصي بضرورة بذل الجهود لكي يحصل الأقباش على منفذ بحري لبلادهم على البحر الأحمر يتيح لهم الاتصال بالمستعمرات البريطانية في بلاد الشرق. غير أن اقتراحات «فالتيا» هذه لم يحفل بها أحد إلى أن اهتم بتنفيذها «هنري سالت» نفسه الذي أصبح بعد ذلك القنصل العام لبريطانيا في مصر^(٦٥).

Marston, T. E. : Op. Cit. , pp . 34, 35.

(٦٣)

F.O./I., Valentia to Canning, 9/13/08 .

(٦٤)

Marston, T.E. : Op. Cit., p. 34.

(٦٥)

أما بالنسبة لتحركات «سولت» فيمكن تتبعها من خلال التقرير الذي قدمه لوزارة الخارجية البريطانية وأوضح فيه أنه وصل الى مصوع ثم انتقل الى «تيجرى Tigre» في الحبشة حيث قدم ما معه من هدايا الى «بحر نيجوس Bahr Negos» حاكم هذه المنطقة. غير أن «سولت» لم يجد ما يشجعه على اقامة علاقات تجارية مستقرة نتيجة لرفض الأجباش لهذا الاتجاه ولضعفهم عن السيطرة على المنطقة الساحلية، مما جعله يشك في نجاح أي تدخل بريطاني في الحبشة حينذاك^(٦٦). وقد أرفق «سولت» بتقريره هذا صورا من المراسلات التي دارت بينه وبين حكومة بومباي وتضمن استفسارات من تلك الحكومة عن هذه الرحلة وأهدافها، مما كان يظهر وجود نوع من السباق بين شركة الهند الشرقية الانجليزية ووزارة خارجية بريطانيا في ذلك الحين.

وجدير بالذكر أن الرسائل المرسلة من مجلس ادارة شركة الهند الشرقية الانجليزية ومقره في لندن كانت تصل الى الحاكم الانجليزي العام في كلكتا في فترة تتراوح ما بين خمسة الى ثمانية شهور، أما المراسلات التي كانت تتطلب ردودا حول الأمور الرسمية فقد كانت تستغرق فترة تصل الى عامين كاملين.

على أن «سولت» قد أرسل أيضا تقريرا سياسيا الى حكومة الهند عن الأوضاع السياسية في البحر الأحمر. موضحا أن البريطانيين يمكنهم الحصول على ما يريدونه في اليمن إذا تحالفوا مع شريف أبي عريش أو امام صنعاء. وكان شريف أبو عريش أو «شريف اللحية» كما يسميه «سولت» يحكم منطقة تهامة، وهي الأراضي الساحلية المنخفضة الممتدة من ميناء اللحية شمالا الى ميناء مخا جنوبا، وأيضا منطقة زيلع على الساحل الافريقي للبحر الأحمر. وذكر «سولت» أنه شاهد سفينة فرنسية في «خليج انسلي Annesley Bay» وأوضح أنها جاءت الى هناك بغرض شراء قطعة من الأرض المطلة على هذا الخليج. وقد أوصى «سولت» في تقريره أيضا بضرورة التحالف مع أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد لمنع الفرنسيين من التسلل الى ايران من جهة ولفتح طريق البحر الأحمر أمام البريطانيين من جهة أخرى عن طريق ميناء عدن وجزيرة كمران واستبداله بالطريق البري الذي كان مهددا حينذاك والمار بالبصرة والخليج العربي.

F.O./I., Salt to F.O 3/4/II, Report on his expedition.

(٦٦)

وتجدر الإشارة الى أن الرأي قد استقر في انجلترا على ارسال «هنري سولت» مرة ثانية الى منطقة البحر الأحمر في سنة ١٨٠٩. وقد وصل الى ميناء محال اليمنى فعلا في شهر نوفمبر من السنة المذكورة، حيث وجد أسعار البن قد ارتفعت بفضل وجود التجار المنافسين من الأمريكيين حتى بلغ سعر البالة ٧٥ دولار الأمر الذي سبب متاعب كثيرة لشركة الهند الشرقية الانجليزية نتيجة لارتفاع الأسعار. وعلى أية حال فقد أوضح «سولت» أنه لم تكن توجد في البحر الأحمر حينذاك سفن معادية للبريطانيين، كما لم تكن توجد لمحمد علي أية سفن هناك في ذلك الحين، مما كان يجعله يرى أنه من السهل على البريطانيين السيطرة على أي موقع يريدونه في منطقة البحر الأحمر.

وهكذا كانت تحركات البريطانيين في البحر الأحمر على مقربة من عدن في مطلع القرن التاسع عشر، وقد تمت هذه التحركات بتوجيه من قبل شركة الهند الشرقية الانجليزية في بعض الأحيان، كما كانت بتوجيه من قبل وزارة الخارجية البريطانية في أحيان أخرى، حتى رجع «سولت» الى انجلترا، ولم يعد الى المنطقة ثانية إلا عندما عين قنصلا عاما لبريطانيا في مصر لدى حكومة محمد علي. ولا يعني هذا أن محاولات البريطانيين للحصول على امتيازات لتجارتهم في المنطقة قد توقفت، بل انهم انتهزوا كل فرصة ممكنة لتحقيق أغراضهم.

وتجدر الإشارة الى أنه قد نوقشت لدى الدوائر البريطانية أهمية احتلال البريطانيين لميناء عدن اليمنى في نهاية القرن الثامن عشر عندما احتلت قوات بونايرت مصر في سنة ١٧٩٨، وكانت تتطلع لشن غزو فرنسي على الهند في ذلك الحين. وقد نتج عن قيام الحرب بين بريطانيا والأمريكيين في الفترة ما بين عامي ١٨١٢ و١٨١٤ أن بدأ بعض الساسة الانجليز يعيدون التفكير في احتلال عدن. بل ان «هنري سولت *Henery Salt*» قنصل بريطانيا في مصر اقترح على حكومة بمباي وجوب ارسال احدى بطاريات الساحل العسكرية الى سلطان عدن لمساعدته في الدفاع عن ميناء عدن، نظرا لأن البريطانيين كانوا في حرب مع الأمريكيين الذين كانوا مرتبطين بعلاقات ودية مع تلك الموانى، والتي كانت معظم سفنهم تفوق في تسليحها السفن التجارية البريطانية التي كانت تبحر

الى تلك المواني، وعلى الرغم من ذلك فان هذا الاقتراح لم يوضع موضع التنفيذ خاصة بعد توقيع الصلح مع الأمريكيين، كما أن التهديد الفرنسي تضاعف نسبيا حينذاك^(٦٧).

وقد حدث في شهر يوليو سنة ١٨١٧ أن تلكاً أحد الأعراب في الوكالة البريطانية في ميناء مخا اليمني. غير أن الحرس الهنود أبعدوه بالقوة مما أثار بعض العرب الذين تجمعوا وأهانوا عددا من الضباط البريطانيين الموجودين بالوكالة. بل ان الوكيل البريطاني في مخا وهو «الملازم دومنكيتي Lieutenant Domincetti» قد تعرض لاهانة من قبل «الدولة» حاكم مخا الذي استدعاه بالقوة في وقت غير مناسب، كما هوجمت الوكالة وتعرضت للنهب والسلب. وقد أطلق حاكم مخا سراح الوكيل البريطاني وأمر بترحيله الى الهند، وأغلقت بطبيعة الحال الوكالة البريطانية في المدينة.

وقد انتهزت حكومة بومباي هذا الحادث واستغلته لمصلحتها بعد مرور عامين من حدوثه خاصة وأنها كانت تنقب عن سبب مناسب يبرر تدخلها. وقد طلبت من امام صنعاء أن ينزل العقاب بالحاكم السابق لمخا لمسئوليته عن تلك الحادثة. بل ان الحاكم العام للهند أمر بتوجيه قوة كافية الى مخا لتدعيم مطالب حكومة الهند البريطانية مستقبلا في الميناء اليمني. كما كانت تهدف حكومة «بومباي» الى فرض معاهدة على امام صنعاء يوافق فيها على أن يكون للوكيل البريطاني في مخا حرس خاص مثله لنظيره في البصرة وبغداد، ويكون هذا الحرس من القوة بحيث يكفل للمقيم الحماية والاحترام. كما أن كل العاملين في الوكالة البريطانية يجب أن يكونوا تحت الحماية البريطانية وتابعين من الناحية القضائية للوكيل البريطاني. أما من الناحية التجارية فيجب انقاص نسبة الضرائب الجمركية على التجارة البريطانية من $\frac{3}{4}$ الى $\frac{2}{4}$. وهذه المطالب دون شك كان من الصعب على الامام أن يتقبلها وهي تنتقص من سيادته وتضعف من ايراداته.

وقد أصدرت حكومة الهند البريطانية تعليقاتها الى «الكابتن وليام بروس Bruce Captain William» المقيم البريطاني في «بوشير» ليمثلها في هذه المفاوضات، ولهذا أبحر

«بروس» الى مخا في ٢٣ أغسطس سنة ١٨١٩ يرافقه أسطول قوي يقوده «الكابتن لملي» *Captain Lumley*، وقد تسلم «بروس» في ٢٤ أكتوبر سنة ١٨١٩ اجابة امام صنعاء التي أبدى فيها مشاعره الودية، وأنه أرسل مبعوثه الفقيه حسين للتفاهم معه. وقد طلب الفقيه حسين من المبعوث البريطاني مرافقته الى صنعاء حيث يمكن احضار حاكم مخا السابق للتحقيق في الواقعة، غير أن «بروس» أوضح أنه لحين تقديم الاعتذار المطلوب فانه لا يمكنه التوجه الى صنعاء^(٦٨).

وجدير بالذكر أن «وليم بروس» مبعوث حكومة الهند البريطانية للتفاوض مع امام صنعاء بشأن الوكالة البريطانية في مخا قد طلب من «هنري سولت» قنصل بريطانيا في مصر حينذاك تأكيد تبعية مخا لمحمد علي، وكان هذا المطلب هو أول علامة مميزة للوجود المصري في اليمن، وأول استخدام للأساليب الدبلوماسية تقوم به شركة الهند الشرقية الانجليزية في تعاملها وعلاقاتها مع الحكومة المصرية^(٦٩).

بل إن حاكم بومباي «الفنستون *Elphinstone*» طلب من «سولت» القنصل البريطاني في مصر حينذاك تأكيد تبعية اليمن لمحمد علي، واستثنائه - في حالة الضرورة - في قيام حكومة بومباي بمحاصرة الموانئ اليمنية، وبأن حدوث ذلك لا يعني وجود أية نية لدى البريطانيين لغزو اليمن^(٧٠).

وقد أجاب «سولت» على «بروس» موضحاً أن محمد علي قد منح الامام الولايات التي سيطر عليها ابنه ابراهيم من «الدولة» حاكم الحديدة، مقابل كمية معينة من محصول البن اليمني ترسل كخراج سنوي للباب العالي. وفضلاً عن ذلك كان محمد علي على علم تام بأهداف حكومة بومباي، وكان يأمل أن تقدم ترضية مناسبة من قبل الامام عن الاهانة التي ألحقت بوكيل الشركة البريطانية في مخا، وأبدى استعدادة للتوسط لحل هذه المشكلة في الوقت الذي تحدده الشركة مما يظهر تفوق مركزه في اليمن حينذاك..

Playfair. R.L : Op. Cit.,pp. 134, 136.

(٦٨)

I.O., Egypt , V.7, Bruce (Mocha) to Salt, 10/6/20 .

(٦٩)

I.O. , Egypt V.7 Elphinstone to Salt, 6/7/, 20.

(٧٠)

غير أن الحوادث تطورت بسرعة وظهر أثناءها اتجاه الامام ومبعوثه للمماطلة في تحقيق المطالب البريطانية مما أدى بالمبعوث البريطاني الى توجيه تحذير للسفن الراحسية في مخا بأن الميناء محاصر بقطع الأسطول البريطاني في اليوم الثالث من شهر ديسمبر سنة ١٨١٩. وقد بدأ قصف الميناء بمدفعية الأسطول في اليوم السادس والعشرين من الشهر المذكور حتى تم اسقاط البرجين الرئيسيين المدافعين عن المدينة في اليوم الثلاثين من نفس الشهر^(٧١)، واضطر حاكم مخا في اليوم التالي الى اصدار قرار بمنع أي شخص من اهانة الرعايا البريطانيين وإلا تعرض لعقوبات قاسية. كما لم يجد امام صنعاء بدا من الموافقة على تخفيض نسبة الضرائب على التجارة البريطانية من ٣ إلى ٢ واضطر الامام الى توقيع المعاهدة التي اقترحتها بريطانيا في ١٥ يناير سنة ١٨٢١ وأرسل صورة معتمدة منها الى المبعوث البريطاني في ميناء مخا اليمنى^(٧٢).

على أنه يلاحظ في نفس الوقت أنه قد ظهر اهتمام قليل من قبل بريطانيا بميناء عدن في سنة ١٨٢٠ عندما قام السلطان أحمد العبدلى سلطان لحج وعدن بابلاغ القبطان «هينز» الذى وصل إلى ميناء عدن بأنه يرغب في أن يكون للانجليز موطن قدم في تلك الميناء . وكان غرضه من ذلك دعم العلاقات التجارية مع شركة الهند الشرقية الانجليزية . كما أن السلطان العبدلى قام بابلاغ «هتشنسون Hutchinson» وكيل شركة الهند الشرقية الانجليزية في مخا أنه سوف بمنح الشركة حق انشاء وكالة بريطانية في عدن نظير قيام بريطانيا بمساعدته ضد القبائل اليمنية المجاورة لسلطنته . وكان على «هتشنسون» أن يجيب عليه بقوله أن حكومة الهند لا ترغب في القيام بأية ترتيبات سياسية، ولكنها تقصر نشاطها على دعم العلاقات التجارية مع الموانئ اليمنية^(٧٣).

وهكذا تمكنت بريطانيا من تدعيم نفوذها التجاري في الموانئ اليمنية المطلة على الجزء الجنوبي من البحر الاحمر ونالت شركة الهند الشرقية الانجليزية مكانة تجارية

I.O., Egypt, V.7, Bruce to Salt, 1/20/21 .

(٧١)

Graham, G. : Op. Cit. , pp 287, 288 .

(٧٢)

Hutchison to Henry Salt, January 24, 1823, pp. 40, 65.

(٧٣)

See Marston, T.E. : Op.Cit.,pp.137 , 139 .

ممتازة في المنطقة. وبهذا استحوذ البريطانيون في وقت مبكر على مزايا تجارية هامة ضمنت في معاهدة رسمية اضطر امام اليمن لتوقيع عليها تحت تهديد مدفعية قطع الأسطول البريطاني التي نفذت الى البحر الأحمر^(٧٤). كما أن معاهدة الصداقة والتجارة التي عقدها بريطانيا مع سلطان لحج وعدن في سنة ١٨٠٢ كانت بداية لسلسلة من المعاهدات المماثلة مع أهالي المنطقة لضمان المصالح التجارية البريطانية في الطريق البحري الى الشرق عبر البحر الأحمر^(٧٥).

وإذا كانت بريطانيا قد حققت هذا القدر من النجاح في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر، فإنها لم تتمكن رغم الجهود التي بذلتها لاجراء الفرنسيين من مصر أن تحل محلهم، أو تبقي على قواتها محبوسة هناك بعد جلاء الفرنسيين، فاضطرت أخيرا الى سحب قواتها من مصر بعد صلح اميان في سنة ١٨٠٣. بل ان البريطانيين فشلوا في تنفيذ خططهم المبنية على تكوين حزب قوي موال لهم من المماليك ومساندته حتى يمك بمقاليد الأمور في مصر لتحقيق بريطانيا أغراضها عن طريقه. وكان البريطانيون قد أخذوا معهم عند انسحابهم «محمد الألفي» وهو أحد زعماء المماليك ليجعلوا منه نواة هذه القوة الموالية لهم. وقد عاد الألفي الى مصر بعد أن نسق خطته مع الانجليز الذين زاد خوفهم من عودة نابليون اليها ثانية بعد أن أبرم معاهدة مع السلطان العثماني في سنة ١٨٠٦. ولهذا أرسل الانجليز حملة «فريزر Frazer» في سنة ١٨٠٧ للتثبت من عدم محاولة الفرنسيين العودة اليها في الوقت الذي كان محمد علي قد ظهر على مسرح الأحداث فيها وسيطر على الموقف هناك تسانده قوة شعبية تصدت للبريطانيين في رشيد. وقد شكّل فشل حملة «فريزر» في رشيد ضربة قوية للنفوذ البريطاني في مصر، كما خسرت بريطانيا عددا كبيرا من جنودها الذين اشتركوا في تلك الحملة^(٧٦).

Playfair, R.L. : Op. : Cit. , pp 137 , 139.

(٧٤)

Gorbal , S. : The Beginnings of thr Egyptian Question and the Rise of Mohammad Aly; p. 125.

(٧٥)

Fortescue, J.W. : A History of the British Army, Vol.V.p.17.

(٧٦)

وإذا كانت بريطانيا قد خسرت جولاتها في مصر في سنة ١٨٠٧ فقد كان لها في نفس الوقت السيادة البحرية الكاملة في البحر المتوسط، خاصة وأن البريطانيين كانوا قد احتلوا جبل طارق ١٧٠٤^(٧٧) فسيطروا بذلك على مدخله الشمالي، كما أنهم كانوا قد احتلوا أيضا جزيرة مالطة في سنة ١٨٠٧، وهي نقطة استراتيجية هامة في وسطه^(٧٨)، ثم أنهم ضموها الى مستعمراتهم بعد انعقاد مؤتمر فيينا في سنة ١٨١٥^(٧٩). بل أن بريطانيا اطمأنت بعض الشيء باتفاقها مع محمد علي بشأن جلالتها عن مصر، عندما تعهد بمقاومة أي محاولة أوربية تستهدف احتلال الأراضي المصرية أو المرور بها للوصول الى الهند عبر البحر الأحمر^(٨٠).

ورغم جلاء الفرنسيين عن مصر في سنة ١٨٠٢ فقد ظلت رغبتهم في العودة اليها والتحكم في طريق البحر الأحمر قائمة، ولهذا أوفد «بونابرت» «الكولونيل سباستيانسي Sebastiani» الى مصر للتعرف على نيات البريطانيين ولدراسة الأوضاع الجديدة هناك في نهاية عام ١٨٠٢. وقد حاول «سباستيانسي» أن يقوم بواجبه على خير وجه ونجح في ذلك حتى أختير سفيراً لفرنسا لدى الدولة العثمانية في سنة ١٨٠٦^(٨١).

وقد ظل «نابليون» حتى نهاية حياته السياسية مهتماً بمصر وبالطريق الموصل للشرق عبر البحر الأحمر. وكان يرسل مبعوثيه لجمع البيانات والمعلومات الهامة ولعرقلة مصالح ومساعي أعدائه البريطانيين في هذه المناطق.

وعندما فرغت فرنسا من تصفية مشاكلها الداخلية الناتجة عن الأوضاع غير المستقرة

A Red Book on Gibraltar, Issued by the Spanish Government, Madred, 1965, pp. 13, 16. (٧٧)

George, H.B. : Op. Cit., pp.13, 19. (٧٨)

حسن صبحي (دكتور): التنافس الاستعماري الأوربي في المغرب ١٨٨٤، ١٩٠٤، ص ١٥. (٧٩)

Kirk, G.E. : a Short History of the Middle East, p. 75. (٨٠)

Hoskins, H.L. : British Routes to India, p.61. (٨١)

فيها، فضلا عن مشاكلها الخارجية مع الدول الأوروبية التي نجمت عن الحروب النابليونية، فانها أخذت تبحث عما يعوضها عن مستعمراتها المفقودة^(٨٢).

ولا شك أن أنظار الفرنسيين قد اتجهت الى المناطق الساحلية الهامة الممتدة من البحر الأحمر الى الخليج العربي، وكانت كلها لا تزال في أيدي أصحابها العرب. وكانت فرنسا تدرك أن العقبات التي تواجه تحقيق أطماعها في هذه الجهات تكمن بالدرجة الأولى في الأطماع البريطانية المنافسة من ناحية، بالإضافة الى العرب أصحاب البلاد الأصليين من ناحية أخرى.

وقد حاولت فرنسا أن تعيد العلاقات التجارية مع السيد سعيد سلطان زنجبار في سنة ١٨١٧ بعد عودة «البوربون» الى العرش، ورحب السلطان باعادة علاقاته القديمة مع فرنسا^(٨٣)، غير أن الفرنسيين أرسلوا بعض سفنهم الحربية الى زنجبار في سنة ١٨٤٠ وطلبوا من ابن السلطان أن يصرح لهم باقامة بعض المباني والحصون في «موجاديشو» و«برزوا» لخدمة أغراضهم التجارية. ولما اعتذر ابن السلطان ومثله «هلال» عن تلبية مطلبهم فقد أبحروا الى مدينة «نوسي بي» *Nossi-Be* الواقعة على مقربة من ساحل مدغشقر الغربي حيث أنزلوا قواتهم ونفذوا أغراضهم بالقوة.

وقد احتج السيد سعيد سلطان زنجبار مستنكرا العدوان الفرنسي وأبرق الى «المرستون» ينبئه بما حدث وطلب مساندة بريطانيا له في مقاومته لهذا العدوان وإلا سيضطر لمفاوضة الفرنسيين إذا لم تتحرك الحكومة البريطانية لمساعدته. غير أن بريطانيا لم تحرك ساكنا لنجدة سلطان زنجبار لأنها لم تكن تهتم بالسلطان ذاته، بل كان يهتمها بالدرجة الأولى حينذاك مواصلاتها في البحر الأحمر و المحيط الهندي. وقد رأى البريطانيون في هذه المحاولات الفرنسية في تلك المناطق البعيدة ما يشغل الفرنسيين عما هو أجدى وأهم، اذ طالما كانت التحركات الفرنسية بعيدة عن «ممبسا» جنوبا فهي لا تهدد المصالح البريطانية عبر طريق البحر الأحمر. وهو ما يهم بريطانيا في المقام الأول بطبيعة الحال.

Coupland, R. : Op. Cit., p . 436.

(٨٢)

Coupland, R. : Op. Cit., p 424 .

(٨٣)

على أن ما أثار البريطانيين فعلا وأقلقهم على مصالحهم في جنوب البحر الأحمر في أوائل القرن التاسع عشر تلك المنافسة الأمريكية التي تمثلت في جهود التجار الأمريكيين من مواطني «ماسا شوستس» الذين نافسوا التجار الهنود المنطلقين من المستعمرات الانجليزية في الهند على التجارة الشرقية بوجه عام وتجارة البن اليمني بوجه خاص^(٨٤). كما حاول التجار الأمريكيين منافسة التجار الهنود في بيع المنسوجات القطنية ونافسهم أيضا في صيد الحيتان من المحيط الهندي وشاركوهم في تجارة الرقيق والبخور واللبان والصمغ والجلود والعاج. بل أن الأمريكيين كانوا يجمعون مخلفات الطيور البرية «Guano» من جزر «كوريا موريا» المواجهة للساحل الجنوبي للجزيرة العربية، وذلك قبل قيام الحكومة البريطانية بمحاولتها الفاشلة لأخذ كميات من تلك المخلفات لاستخدامها في تسميد الأرض في الجزر البريطانية نفسها.

وقد تبينت شركة الهند الشرقية الانجليزية منذ أوائل القرن التاسع عشر أن الأمريكيين يعتبرون منافسين جادين لها. فعلى الرغم من بعد بلادهم عن ميدان التجارة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، فانهم كانوا يحضرون من بلادهم النائية للاشتراك في النشاط التجاري هناك. بل ان التجار الأمريكيين أخذوا يرسلون سفنهم الى الموانئ اليمنية وخاصة ميناء مخا، حيث يحصلون على ثلاثة أرباع إجمالي محصول البن اليمني الذي كان يبلغ في عام ١٨٠٩ ثلاثة عشر ألف بالة. وقد أدت منافستهم هذه في مجال تلك التجارة الى رفع سعر البالة من ٥٦ دولارا (أي حوالي ١١ جنيه استرليني) الى ٧٥ دولارا (أي حوالي ١٥ جنيه استرليني)، وقد قام التجار الأمريكيون باستخدام الطريق الموصل الى البحر الأحمر عبر طريق رأس الرجاء الصالح مع المرور بمحاذات الساحل الشرقي لأفريقيا. وقد وفر ذلك عليهم نفقات النقل التي كانت تحصل عليها شركة الهند الشرقية الانجليزية والشركات الفرنسية الأخرى التي اتخذت من جزر موريشيوس وريونيون «Mauritius and Reunion» قواعد لها.

وكان التجار الأمريكيون على درجة فائقة من الهمة والنشاط على نحو ما يمثله التاجر الأمريكي «تشارلز ميليت *Charles Miliet*» فقد أبحر هذا التاجر من بلاده بسفينته الشراعية المعروفة باسم «آن *Ann*» ووصل الى ميناء مخا في ٢٠ يونيو سنة ١٨٢٦ ومعه حمولة ضخمة من البضائع القطنية والمسامير والتبغ حيث أفرغ سفينته لدى التجار الذين كانوا يقومون ببيعها لحسابه حتى يعود اليهم في رحلته التالية. وكان «ميليت» هذا يقوم بشحن سفينته بكميات هائلة من محصول البن اليمني يأخذه معه الى بلاده، ثم يعاود رحلاته الى بلاد الشرق بصفة منتظمة . ويعتبر «ميليت» مثالاً للتجارة الأمريكية الذين كان لهم دور فعال في التجارة الشرقية في ذلك الحين^(٨٥) .

جهود البريطانيين لمواجهة المنافسة الأمريكية وغيرها في جنوبي البحر الأحمر

وعلى هذا النحو من الجهود التي بذلها التجار الأمريكيون للمشاركة في التجارة الشرقية بوجه عام وتجارة البن اليمني بوجه خاص منذ أوائل القرن التاسع عشر، فقد أحس البريطانيون بأنهم يواجهون منافسا خطيرا لمصالحهم في جنوب البحر الأحمر والمحيط الهندي ^(٨٦). ففي خلال ثمانية عشر شهرا بين عامي ١٨٣٢، ١٨٣٤ وصلت الى ميناء زنجبار على الساحل الشرقي لأفريقيا ٣٢ سفينة أمريكية عرجت كثيرات منها الى جنوب البحر الأحمر، هذا في الوقت الذي لم تصل الى الميناء المذكور سوى سبع سفن بريطانية لا غير. وقد وصلت الى ميناء مخا اليمني مجموعة كبيرة من تلك السفن الأمريكية لنقل كميات من البن اليمني الذي كان يلاقي ترحيبا بالغا وسوقا رائجة في الولايات المتحدة حينذاك ^(٨٧).

ولا شك أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية كانت تساند التجار الأمريكيين في جهودهم الرامية الى مشاركة الانجليز بل منافستهم في العمليات التجارية بالأسواق الشرقية بعد أن كانوا ينفردون باحتكارها منذ انشاء شركة الهند الشرقية الانجليزية في عام ١٦٠٠. ومما يؤكد ذلك الاتجاه لدى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية هو قيامها بعقد أول معاهدة مع سلطان مسقط وزنجبار في سنة ١٨٣٣ - حيث كانت سفنه تبحر بالتجار في أرجاء المحيط الهندي والبحر الأحمر وكانت تهدف الى ضمان حسن سير عمليات التبادل التجاري مع التجار الأمريكيين ^(٨٨). أما بالنسبة لسلطان مسقط وزنجبار فقد أقبل على عقد هذه المعاهدة بعد أن تبين الفوائد الجمة التي ستعود عليه نتيجة لارتباطه مع التجار الأمريكيين وحكومتهم، وبعد أن أصبح لهم دور فعال في منافسة احتكار الانجليز للتجارة الشرقية في المحيط الهندي والبحر الأحمر منذ أوائل القرن التاسع عشر.

Marston , T.E; Op. Cit. p. 139 .

(٨٦)

Waterfield, G . : Op.Cit., p. 41.

(٨٧)

Coupland , R . : Op. Cit., p. 365 .

(٨٨)

وتشير بعض الدراسات الوثائقية الى أن بريطانيا لم تكن تواجه منافسة من قبل الأمريكيين حول ميدان التجارة الشرقية عامة وتجارة البن اليمني على وجه الخصوص فحسب بل انها واجهت نفس المنافسة من قبل محمد علي الذي وصلت قواته الى تهامة اليمن لتعقب «تركجة بيلمز» المتمرد عليه والذي فر من الحجاز الى اليمن في سنة ١٨٣٣. اذ وضع أن محمد علي كان ينبغي من الوصول الى تهامة اليمن حينذاك السيطرة على تجارة البن اليمني المربحة، ومنافسة البريطانيين كذلك في هذا الميدان. ومما يؤكد ذلك قيامه بفرض ضرائب باهظة على التجار التابعين لشركة الهند الشرقية الانجليزية بلغت نسبتها ٧٪ في المواني اليمنية.

ونتيجة لذلك فقد قام «اللورد بالمستون» وزير الخارجية البريطانية بتوجيه تعليقاته الى «كامبل» القنصل البريطاني في مصر في أول مارس سنة ١٨٣٧ ليطلب بشكل قاطع من محمد علي رفع القيود المفروضة على التجارة البريطانية على وجه السرعة، لأن بريطانيا لن تسمح للمصريين بأن يواصلوا تطبيق هذا النظام الذي ينطوي عى العداء الكامل للتجارة البريطانية، وأنه اذا لم ترفع هذه القيود فان الحكومة البريطانية سوف تأخذ في اعتبارها فوراً اتخاذ كافة الاجراءات التى تضمن المحافظة على «شرف بريطانيا العظمى» وعلى مصالحها التجارية في منطقة البحر الأحمر^(٨٩). هذا في الوقت الى كان الأمريكيون يبذلون فيه جهودهم ويحصلون على نصف حجم التجارة الموجودة في الموانى اليمنية في ذلك الحين^(٩٠).

وقد أكد هذه الجهود الأمريكية للسيطرة على التجارة اليمنية عامة وتجارة البن نصفه خاصة فضلا عن عمليات النقل البحري، ما أشار اليه «كامبل» القنصل البريطاني في مصر الذي كتب الى وزارة الخارجية البريطانية في شهر نوفمبر سنة ١٨٣٧ مجمعا الحكومة البريطانية على تبني فكرة الاسراع بامتلاك عدن في الوقت الذي قامت ببلجنة «مجلس العموم البريطاني House of Commons Committee» باقرار اقامة خط رى

F.C/318 , from palmerston to campbell, March I., 1837.

(٨٩)

Wafield , G. :Op. Cit pp. 31 , 23 .

(٩٠)

للبواخر يربط انجلترا بالهند . وكان بعض الخبراء لا يزالون يشيرون الى استخدام مخا أو سقطرى أو بریم أو كمران كمحطة للبواخر البريطانية على هذا الطريق . فان «الكولونيل كامبل» أشار الى أهمية عدن في هذا السبيل بقوله :

“It would not only prevent the possibility of any attempt by Mohammed Ali (Viceroy of Egypt) and other to extend their conquests beyond the Red Sea, but, moreover besides its advantageous position as a coal depot of our communication between Bombay and Suez, it would most probably throw the whole trade of Mocha coffee into that port, and give to England the whole command of that article a great quantity of which is at present bought by Americans.” (٩١)

وهذا ينبي أن «كامبل» القنصل الانجليزي في مصر كان يعتقد في أوائل نوفمبر سنة ١٨٣٧ أن حلال البريطانيين لن يمنع فقط أية محاولة محتملة يقوم بها محمد علي وآخرين لد نفوذهم فيما وراء البحر الأحمر، الى جانب موقع عدن الممتاز كمحطة لتزويد البواخر الانجليزية بالفحم على طريق المواصلات البريطانية البحرية بين بومباي والسويس. بل أنه رأى يضا أن عدن فضلا عن ذلك ستجذب تجارة البن اليمني الهامة والمربحة بأكملها من ميناء مخا، وتصبح بريطانيا مهيمنة تماما على تلك التجارة وتكسر احتكار الأمريكين لها بعد أن كانوا يستحذون على كميات هائلة من محصول البن ويقومون بنقلها الى الولايات المتحدة بواسطة السفن الأمريكية.

وهذا شكل التجار الأمريكيون في ذلك الوقت المبكر منذ بداية النصف الأول من القرن التاسع عشر وأثناء منافسا خطيرا للنشاط التجاري لشركة الهند الشرقية الانجليزية في منطقة البحر الأحمر والمحيط الهندي رغم بعد الولايات المتحدة الأمريكية عن البار الشرقية. وقد وجه ذلك البريطانيين الى ضرورة السيطرة على عدن للاستئثار بتجارة لبن اليمني بعد تحويلها من مخا الى ذلك الميناء، فضلا عن احتكار الأسواق التجارة بمنطقة البحر الأحمر لتحطيم المنافسة الأمريكية وغيرها بعد أن بدت خطورتها بشكل ملحوظ

I.O., FACTORY Records, Persia, Vol.58, Colonel Patric Campbell, British Consul-General in (٩١) Egypt, to Lord Palmerston, Foreign Minister, Alexandria, November 1.1837.

وجدير بالذكر أنه قد نشب تنافس حاد بين المصريين والبريطانيين في أعقاب احتلال بريطانيا لعدن حول تجارة البن اليمني على وجه الخصوص. ففي نهاية شهر فبراير سنة ١٨٣٩ توجه الى عدن مبعوث الشيخ الشرزبي حاكم اقليم الحجرية اليمني ليوضح أن الشيخ الشرزبي يرغب في زيارة «هينز» المقيم السياسي البريطاني في عدن بعد أن تلقى عدة رسائل من الحاكم المصري في اليمن يعرض منحه مكافآت عظيمة ووعودا كريمة اذا هو سلم اقليمه للمصريين. وأوضح مبعوث الشيخ الشرزبي أيضا أن رئيسه يرغب في أن يتفق مع الانجليز لتجد صادرات اقليمه الخصب طريقا ومخرجا لها عبر عدن وليس عن طريق المواني اليمنية الأخرى التابعة لحكم محمد علي مثل ميناءي مخا، والحديدة. كما أوضح أيضا أن الحاكم المصري في تهامة حذر الشيخ الشرزبي بأنه اذا توبه الى عدن فان الانجليز سوف يقبضون عليه نظرا لما بين الجانبين المصري والانجليزي بينذاك من علاقات طيبة.

وقد أوضح «هينز» لرئاسة بومباي ما حدث موضحا أنه ليس من المسغرب أن السلطات المصرية ستكون قلقة للغاية لحرصها على امتلاك اقليم الحجرية، اذ كان دخل هذا الأقليم من محصول البن اليمني فقط من خلال تصديره عبر ميناء مخا يبلغ ٦٠.٠٠٠ ستون ألف دولار (أي ما يعادل ١٢.٠٠٠ جنيه استرليني) سنويا، وأن المصريين كانوا على علم تام بأن الشيخ الشرزبي اذا وجد معبرا لتجارة البن عبر عدن، فإن ميناء مخا الذي يسيطرون عليه ستقل قيمته كثيرا، وان تلك الخطوة ستشكل الخطوة الأولى نحو الانهيار الاقتصادي الذي كان لابد من حدوثه في مخا اذا استمر العلم البريطاني يرفرف على ميناء عدن^(٩٢). ولهذا فقد عقد «هينز» مع الشيخ عون بن يوسف الشرزبي شيخ الحجرية المعاهدة التي حددت أن ما يرتضيه البريطانيون في عدن سيكس محمل التنفيذ^(٩٣). وواضح من ذلك أن الشيخ الشرزبي حاكم الحجرية كان يعتقد أن تعامل مع البريطانيين سوف يوفر عليه كثيرا من الضرائب التي فرضتها الادارة المصرية على الصادرات بعد أن أصلحت المواني اليمنية من جهة، فضلا عن خشيته من احتلال محمد علي لمحصول البن اليمني الهام من جهة أخرى.

(٩٢) I.O. Set Department, Bombay, to Secret Committee, Vol.6, February 25, 1839.

(٩٣) I.O. Jbay Secret Proceedings, Haines to Bombay Government, April 13, 1854.

وإذا كان قد سبق أن اثير حوار علمي بعيد المدى حول تحديد ماهية الدوافع الحقيقية لاحتلال البريطانيين لعدن في ١٩ يناير سنة ١٨٣٩.. ورؤي أنها تتلخص في رغبة البريطانيين في استخدام عدن محطة لتموين السفن البريطانية بالفحم والمياه والمؤن اللازمة، نظرا لموقعها المتوسط بين بومباي والسويس من جهة وصلاحيه ميناءها للملاحة طوال فصول السنة من جهة أخرى. كما اتخذها البريطانيون مركزا لوقف توسع محمد علي وتصفية نفوذه في الجزيرة العربية حتى لا يهدد طريقي مواصلاتهم الى الهند عبر الخليج العربي والبحر الأحمر على السواء. بل ان البريطانيين رأوا أن عدن يمكن أن تكون قاعدة دفاعية أمامية^(٩٤)، فيما وراء نطاق حدودهم لمواجهة المنافسة الضارية من قبل روسيا القيصرية التي كانت تسعى للوثوب على المصالح البريطانية عبر استامبول والعراق وايران من جهة، ومن قبل فرنسا التي كانت تتسلل لتحقيق غاياتها بضرب بريطانيا في الشرق عبر البحر المتوسط ومصر من جهة أخرى.. هذا فضلا عن الدور الذي كانت تلعبه النمسا أيضا في ذلك الحين محاولة السيطرة على جزيرة سقطري الواقعة أمام القرن الافريقي وعند المدخل الجنوبي لخليج عدن من جهة ثالثة على نحو ما ورد بتصريحات بعض المسؤولين البريطانيين في ذلك الحين^(٩٥). أما مسألة جنوح السفينة الهندية «دريات دولت» على الساحل اليمني القريب من عدن وتعرضها للنهب وطلب الانجليز اصول على التعويض اللازم من سلطان لحج وعدن، ثم نقل ملكية عدن الى الحكومة لبريطانية ورفض السلطان ذلك، فلم يكن هذا الحادث سوى ذريعة مباشرة للاحتلال ومن نوع الأحداث المناسبة للاستثمار لخدمة الأهداف البريطانية خدمة ممتازة^(٩٦)

إذا ما نت هذه الدوافع كلها قد أدت الى احتلال البريطانيين لعدن، فان رغبة البريطانيين في الاستحواذ على التجارة اليمنية بوجه عام واحتكار تجارة البن اليمني المربحة ينداك بشكل خاص، وتخطيط المنافسة الأمريكية في هذا المجال بعد أن بدت

Graham, G, S.: Op. Cit., pp 301,306.

(٩٤)

Marston, T.E.: Op. Cit., p;58.

(٩٥)

Graham, G.,S.: Op Cit., p.393.

(٩٦)

خطورتها بشكل ملحوظ، تعتبر من أهم دوافع البريطانيين لاحتلال عدن في نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر.

وبعد احتلال البريطانيين لعدن في ١٩ يناير سنة ١٨٣٩، ونجاحهم في اخراج المصريين من اليمن وفقا لقرارات مؤتمر لندن في سنة ١٨٤٠، فقد قام محمد علي بتسليم منطقة تهامة القريبة من عدن والممتدة على الساحل اليمني المطل على البحر الأحمر^(٩٧) للشيخ حسين بن علي بن حيدر حاكم أبي عريش عاصمة المخلاف السلياني بشمال اليمن ليحكمها ممثلا عن الباب العالي^(٩٨).

وتجدر الإشارة الى أن الحسين بن علي بن حيدر حاكم تهامة الجديد قد فرض ضرائب باهظة على التجار والأهالي في المناطق التابعة له بحجة أنه يقوم باعداد جيش كبير يهاجم به عدن لينتزعها من أيدي البريطانيين .

كما رفع الحسين نسبة الضرائب على البضائع البريطانية في ميناء مخا حتى بلغت ٧٪ من قيمتها. بل أنه أهان الرعايا البريطانيين في مخا ورفض ارسال المؤن اللازمة الى عدن. ثم ذهب الى أبعد من ذلك عندما أنزل العلم البريطاني عن مبنى الوكالة الانجليزية في مخا^(٩٩)، وأرسل خطابا الى المقيم السياسي البريطاني في عدن في شهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ اتهم فيه «عبد الرسول» وكيل البريطانيين في مخا بأنه «كاذب ومنافق»، كما اتهم الانجليز بأنهم يعملون على تخفيض الضرائب بما يؤثر تأثيرا سيئا على دخل حكومته في تهامة اليمن^(١٠٠).

وعندما علمت حكومة لندن وخاصة وزارة الخارجية البريطانية عن طريق «مجلس شئون الهند India Board» الذي كان يدير شئون شركة الهند الشرقية في لندن،

Douin, G. Histoire du Regne du Khedive Ismail Tome III, 1 ere Partie, p. 233. (٩٧)

Marston, T.E.: Op. Cit, p. 100. (٩٨)

F.O., 78/3/85, Haines to Secret Committee, 9/14/40. (٩٩)

Marston, T.E.: Op. Cit., p. 102. (١٠٠)

بالتصرفات العدائية التي قام بها الشريف حسين حاكم تهامة ضد الوكالة البريطانية في مخا، فقد ثارت ثورة عارمة حفاظا على مصالح بريطانيا في البحر الأحمر. ولما كانت وزارة الخارجية البريطانية لا تعلم حقيقة الأوضاع القائمة في المنطقة واستنادا الى أن كل ما فتحه محمد علي في الجزيرة العربية قد آل الى الدولة العثمانية، فان الوزارة قد احتجت على الباب العالي في الآستانة^(١٠١)، وقد سارع الباب العالي الى ارسال أشرف بك الى مخا لاقرار الأمور بما يتفق والمصالح البريطانية. وقد مر بمصر أثناء توجهه الى مخا في شهر مارس سنة ١٨٤٢^(١٠٢)، وأعطيت له صلاحيات عزل الشريف حسين نفسه اذا استدعت الضرورة ذلك على نحو ما أخطرت الحكومة البريطانية «هينز» بذلك في شهر مايو من تلك السنة.

وعلى أية حال فقد ضاق أهالي تهامة بعبء الضرائب التي فرضها الحسين عليهم في تهامة، فضلا عن الضرائب التي فرضها على البضائع الانجليزية وبدأوا يفرون من مخا والحديدة متجهين الى عدن. وقد انتشرت في عهد الحسين الأمراض في اليمن مما جعله يخشى على رجاله ويصدر أوامره لجميع السفن الراسية في مخا والحديدة بافراغ شحناتها ونقل المرضى فقط الى عدن. وقد بلغ معدل الداخلين الى عدن شهريا حوالي ألف ومائتين من سكان تهامة.

وقد ترتب على ذلك أن ازداد تعداد السكان في عدن وبدأت المدينة تتوسع لتستقبل المهاجرين والتجار والداخلين اليها حتى بلغ عدد منازل المدينة ألفي منزل بنيت من الحجارة والطين فوق بقايا مدينة عدن القديمة. وفي سنة ١٨٤٢ بلغ تعداد سكان عدن خمسة عشر ألف نسمة وانتعشت المدينة واستعادت بعض مجدها الغابر، خاصة بعد أن أصبحت ميناء حرا مفتوحا للتجارة في سنة ١٨٥٠^(١٠٣).

I.O., B.S.C. 1842: Government of India to Bombay, 2/28, 42, enclosing Aberdeen to Fitzgerald, 12/22/41. (١٠١)

F.O., 78/502, Barnett to F.O., 3/20/42. (١٠٢)

(١٠٣) حمزة علي ابراهيم لقمان: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، ص ٢٢١.

وقد أجرى احصاء رسمي لسكان عدن في سنة ١٨٥٦ ووجد أن تعداد السكان حينذاك قد بلغ ٢٠٦٥٤ نسمة . وفي سنة ١٨٧٢ أجرى احصاء آخر في عدن أظهر مدى التزايد المستمر في تعداد السكان الذي بلغ حينذاك ٢٩٢٨٩ نسمة. وكان تعداد الجنود بينهم ٣٤٣٣، أما بقية السكان فكان بينهم ٨٢٤١ يمنية، و٤٣٤٦ صوماليا و٢٦١٤ هنديا مسلما، و١٤٣٥ يهوديا، و٨٥١ هنديا من البانيين غير المسلمين، و١٨٢ بريطانيا مدنيا، أما الباقون فكانوا من الأتراك والايروانيين والمصريين والأكراد والصينيين وبعض الأوربيين، وأمريكي واحد فقط وكان ذلك الأمريكي هو «المستر وليم لوكمان» الذي كان يشتغل بالتجارة. وقد عينته حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قنصلا فخريا في عدن سنة ١٨٧٩، غير أن القنصلية الأمريكية الرسمية أنشئت في سنة ١٨٩٥، وكان القنصل الرسمي في عدن حينذاك هو «مستر ماسترسن»^(١٠٤).

ولا شك أن تزايد سكان عدن على النحو المشار اليه إنما يؤكد حرص البريطانيين على تنشيط تلك المدينة بحيث تجتذب النشاط التجاري من المواني اليمنية الأخرى أمثال مخا والحديدة، وكان ذلك نتيجة طبيعية لجهود البريطانيين في كسر احتكار التجار الأمريكيين للتجارة اليمنية عامة وتجارة البن اليمني على وجه الخصوص. وقد واجه البريطانيون مواقف الشريف الحسين بن علي بن حيدر حاكم تهامة بتركيز جهودهم لنقل النشاط التجاري من موانئه ليمركز هذا النشاط في عدن، واتفق مع البريطانيين في هذا الموقف امام صنعاء الذي كان يعادي الحسين ويرغب في استرجاع تهامة من قبضته ومن تبعيتها للدولة العثمانية. غير أن المقيم السياسي البريطاني في عدن «هينز Haines Captain» لم تكن لديه تعليمات بعقد اتفاق مع امام صنعاء للتعاون عسكريا ضد الشريف حسين حاكم تهامة، وهذا قد جعله يرد محاولتين من جانب الامام لطلب التعاون. غير أنه عرض على الامام أن يفتح ميناء عدن لتصدير البن اليمني بدلا من تصديره عن طريق مخا. بل ان المقيم السياسي «هينز» أخطر «المجلس السري The Secret Board» لشركة الهند الشرقية الانجليزية في ١٠ ابريل سنة ١٨٤٢ بأن امام صنعاء عاد مرة أخرى وعرض عليه تعاون بريطاني يمني لحصار ميناء مخا في مقابل تنازل الامام لبريطانيا عن

(١٠٤) حمزة علي ابراهيم لقمان: نفس المصدر، ص ٢٢٢.

تهامة بعد تخليصها من حكم الحسين^(١٠٥). وقد وصل الأمر بالامام الى هذا الحد نكاية بالحسين نظرا لأنه لم يكن قادرا على التغلب عليه حينذاك.

وفي نفس الوقت وجه الشريف حسين ضربة اقتصادية ضد البريطانيين في عدن عندما هبط بالضريبة الجمركية على البن المصدر من مخا على السفن الامريكية الى ٣٪ فقط، بل أنه تنازل أيضا عن رسوم الرسو في الميناء في سنة ١٨٤٢. وكان يهدف من وراء ذلك الى توجيه عمليات تصدير البن الى مخا بدلا من عدن حتى أنه أقنع «مستر ويب Mr Webb» قائد السفينة الأمريكية «راتلر Rattler» بأخذ شحنات البن اللازمة له بصفة دورية من مخا^(١٠٦). وكان طبعيا أن يرحب هذا التاجر الأمريكي باستيراد البن من مخا بدلا من عدن بتلك الشروط المرضية، وحتى يتفادى منافسة البريطانيين للأمريكيين في هذا المجال.

وازاء هذا الموقف فقد رأت حكومة الهند البريطانية أن تسعى من جانبها لاقامة علاقات ودية مع الحسين بن علي بن حيدر بعد أن ملك زمام الأمور في تهامة محاولة استرضاءه. ولهذا أصدرت تعليماتها الى «كابتن مورسبي Captain Morsby» للتقدم تجاه ميناء مخا لمحاولة استرضاء الشريف حسين واقامة علاقات ودية معه. وقد نجح «كابتن مرسبي» في الاتفاق مع شريف مخا وعقد معه معاهدة تجارية تتفق والمصالح البريطانية في البحر الأحمر^(١٠٧). وكانت السياسة البريطانية قد اتجهت حينذاك الى اغفال أمر الدولة العثمانية صاحبة السيادة في سواحل البحر الأحمر، وشرعت تتحالف مع بعض شيوخ تلك المناطق أو صغار أمرائها وتحصل منهم على صك بالتنازل عن بعض الأماكن التي في حوزتهم. وقد تمكنت بريطانيا من وضع أقدامها في تلك الأرجاء باتباعها لهذه السياسة.

Marston, T.E: Op. Cit., pp. 103, 105.

(١٠٥)

I.O., B.S.C, 1842, Haines to Bombay, 5 31/42.

(١٠٦)

I.O., B.8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern Shores of the

Red Sea... etc., pp.14, 15.

وعندما قتل امام صنعاء في شهر ديسمبر سنة ١٨٤٩ فقد تعرضت اليمن لحالة من الفوضى والاضطراب، وتوقفت الطرق المؤدية الى مخا والحديدة. بل ان الضرائب الباهظة التي فرضها الترك في مخا أدت الى توقف الحركة التجارية بها وتدفقت التجارة بعد ذلك الى عدن في سنة ١٨٥٠^(١٠٨)، مما أدى الى زيادة عدد سكانها على النحو الذي أشرنا اليه نتيجة لانتعاشها من الناحية التجارية على وجه الخصوص.

وجدير بالذكر أن العثمانيين بعد أن استقروا في تهامة في سنة ١٨٤٩ حاولوا أن يسيطروا على مناطق انتاج البن لتحويل تصديره الى مخا والحديدة بدلا من عدن. غير أنهم لم يوفقوا في ذلك نظرا لرفض القبائل الزيدية للسيطرة التركية على بلادهم. وأصبح لذلك معظم محصول البن اليمني يصدر لخارج اليمن عن طريق عدن حيث يتفادى التجار دفع الضرائب التي كان يفرضها الأتراك في ميناء مخا والحديدة، مما أدى الى اضمحلال الحركة التجارية فيها، وأثر ذلك بالتالي تأثيرا بالغا على اقتصاديات اليمن.

وقد حدث ذلك في الوقت الذي حرص فيه البريطانيون على أن يظل ميناء عدن حرا^(١٠٩) «Free port»، كما أن الغالبية العظمى من السفن اتجهت الى ميناء عدن وفضلته عن غيره لاعتبارات معينة، أهمها أن الرسو في عدن يوفر على التجار دفع ضريبة قدرها ٥% للجمرك العثماني بالنسبة للسفن البريطانية. أما بالنسبة للسفن غير البريطانية فكان عليها أن تدفع ضريبة ١٢% الى جانب ضريبة أخرى تدفع على كل بالة بن. هذا فضلا عن أن الرحلة في البحر الأحمر كانت خطيرة نسبيا نظرا لكثرة الشعاب المرجانية، وكان يمكن تجنبها أو اختصارها اذا ما أتاحت لتلك السفن فرصة الرسو في ميناء عدن^(١١٠).

وهكذا تحولت مخا الى مدينة خاملة وأصبحت تجارتها ضئيلة ودخلها تافه، كما أن القلة الباقية فيها من سكانها كانوا على استعداد للرحيل الى عدن اذا ما سمح لهم بذلك.

Marston, T.E., Op. Cit., pp. 152,153

(١٠٨)

Waterfield, G.;Op. Cit., p.200.

(١٠٩)

Marston, T.E.:Op. Cit., . 159.

(١١٠)

وكان «هينز» المقيم السياسي البريطاني في عدن حينذاك يراقب كل ما يدور عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وفي المواني الواقعة هناك. وقد أبلغ حكومته في بومباي في شهر مايو سنة ١٨٥٠ عن حالة الانهيار التي اعترت ميناء محال اليمنى^(١١١)، مما سيؤدي بالتالي الى ازدهار النشاط التجاري في عدن نتيجة لهجرة معظم سكان محال اليها. وقد تحولت كل تجارة البن اليمنى المتجمعة من جميع مناطق انتاج البن في اليمن الى ميناء عدن في سنة ١٨٥٢ حيث أصبح يتم تصديره الى أوروبا وأمريكا من هناك. وقد بلغت كميات البن المنقولة من مناطق زراعتها الى عدن في السنة المذكورة أربعة آلاف حمولة، وكل حمولة منها زنتها ثلاثمائة رطل. وقد جذبت تجارة البن اليمنى الى عدن تجارة الأمريكيين الضخمة التي بلغ حجمها أكثر من ٢٨٠.٠٠٠ ثمانية وعشرون ألف جنيه استرليني في سنة ١٨٥٢، كما تضاعف حجمها في العام التالي. هذا مع العلم بأن الحجم الكلي للتجارة في عدن كان يقدر حينذاك بحوالي ٦٠٠.٠٠٠ ستائة ألف جنيه استرليني^(١١٢) وكان ذلك دليلا على نجاح البريطانيين في كسر احتكار الأمريكيين لتجارة البن اليمنى التي كان يعتبر ميناء محال مركزها الرئيسي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وأصبحت هذه التجارة في قبضة البريطانيين وتتم تحت اشرافهم في ميناء عدن بعد سيطرتهم عليها في عام ١٨٣٩.

وختاما لهذا البحث فانني أرجو أن أكون قد وفقت في توضيح أبعاد التنافس الدولي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر وخاصة ما يتعلق بالتنافي البريطاني الأمريكي هناك حينذاك رغم ضالة المادة العلمية التي خلفتها لنا المصادر التاريخية حول هذا الموضوع الهام.

كما أنني أرجو أن أكون قد وفقت أيضا في القاء مزيد من الضوء على تطور النشاط التجاري في المواني اليمنية في الفترة المذكورة موضحا أثر ذلك على النمو السكاني في تلك المواني. فضلا عن ابراز الأهمية البالغة التي كان يحظى بها محصول البن اليمنى في النصف الأول من القرن التاسع عشر لدى العالم المعاصر حينذاك مما أثار تنافسا دوليا حول احتكار تجارته على النحو الذي أشرنا اليه..

Marston, T.E., Ibid., p.162.

(١١١)

I.O., Haines to Bombay, May 29, 1952, Letters from Aden, Vol. 32.

(١١٢)

مصادر البحث

أولا : مصادر باللغة العربية:

- أحمد فضل بن علي بن محسن العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك الحج وعدن، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥١هـ.
- جلال يحيى: التنافس الدولي في شرق افريقية، دار المعرفة بالقاهرة، مارس ١٩٥٩.
- التنافس الدولي في بلاد الصومال، دار المعرفة بالقاهرة، مايو ١٩٥٩.
- سواحل البحر الأحمر، لجنة الدراسات الافريقية، القاهرة، مارس ١٩٦٠.
- حسن صبحي (دكتور): التنافس الاستعماري الأوربي في المغرب ١٨٨٤ - ١٩٠٤، دار المعارف - بالقاهرة ١٩٦٥.
- حسن صبحي (دكتور): معالم التاريخ الأمريكي ١٤٩٢ - ١٩١٧، دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٨.
- حمزة علي ابراهيم لقمان: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة، القاهرة ١٩٦٠.
- السيد مصطفى سالم (دكتور): الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٩.
- صلاح الدين البكري اليافعي: في جنوب الجزيرة العربية، مطبعة الحلبي بالقاهرة، ١٩٤٩.
- صلاح العقاد (دكتور): التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة، ١٩٦٥.
- عبدالحמיד البطريق (دكتور): من تاريخ اليمن الحديث، ١٥١٧ - ١٨٤٠، معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، ١٩٦٩.

- محمد صبري (دكتور) : مصر في افريقية الشرقية، هرر وزيلغ وبربرة، ١٩٣٩.
- محمد محمود السروجي (دكتور) : سياسة الولايات المتحدة الخارجية الاسكندرية، ١٩٦٥.
- محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الجمهورية الحديثة، منشأة المعارف بالاسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٨.

ثانيا: مصادر باللغات الأجنبية:

أ - الوثائق : Documents

(١) - وثائق لم يسبق نشرها:

أولا: سجلات وزارة الخارجية البريطانية المحفوظة في دار المحفوظات

— Great Britain Public Record Office العامة بلندن

- F.O.I., Valentia to Canning, 9/13/08.
- F.O.I.I., Salt to F.O. 3/4/II, Reprot on his expedition.
- F.O., 78/3/8, From Palmerston to Campbell, March I., 1837.
- F.O. 37/3/85, Haines to Secret Committee, 9/14/40.
- F.O., 78/502, Barnett to F.O., 3/20/42.

ثانيا : سجلات وزارة الهند البريطانية بلندن:

— India Office Library and Records :

- I.O., Egypt. V.7 Bruce (Mocha) to Salt, 10/6/20.
- I.O. Egypt.V.7, Elphinstone to Salt, 6/8/20.
- I.O. Egypt.V.7, Bruce to Salt, 1/20/21.
- I.O., Bombay Secret Preceedings, Haines to Bombay Government, April 13, 1854.
- I.O., Secret Department, Bombay, to Secret Committes, Vol. 6, February 25, 1839.
- I.O.B.S.C. 1842; Government of India to Bombay, 2/28/42, enclosing Aberdeen to Fitzgerald, 12/22/41.
- I.O., B.S.C., 1842. Haines to Bombay, 5/31/42.
- I.O., Haines to Bombay, May 29, Letters From Aden, Vol. 32.
- I.O., B, 8, Memorandum on the Turkish Claim to Sovereignty over the Eastern shores of the Red Sea.
- I.O., Factory Records, Persia, Vol. 58.

- Aitchison, C.U.: A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads, relating to India and the Neighbouring Countries, 12 Vol, Calcutta 1882.
- A red Book on Gibralture, Issued by the Spanish Government, Madrid, 1965.
- Hurewitz, J.C.; Diplomacy in the Near and Middle East, Two Vols. New York, 1956.

مؤلفات : Texts

- Commager, H.S.: The History of the United States 1951.
- Commager, H.S.: Living Ideas in America, N.Y. 1951.
- Collidge A.C.: The United States as A World Power, N.Y. 1918.
- Coupland, R.: East Africa and its Invaders, Oxford: Clarendon Press, 1938.
- Crichton, A.: History of Arabia, Ancient, and Modern, Edinburgh 1834.
- Douin, G.: Histoire du Regne du Khedive Ismail, tome III, Le Caire, 1941.
- Elson, Henry Williams: History of the United States of America, N.Y. 1927.
- Fisher, H.: A History of Europe, London; 1961.
- Fortescue, J.W: A History of the British Army, Vol.V. (1807 - 1809).
- George, H.B: A Historical Geography of the British Empire, Seventh Edition, London, 1924.
- Ghorbal, S.: The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Aly.
- Graham, Gerald, S.: Great Britan in the Indian Ocean, A study of Maritime Enterprise 1810 - 1850, Oxford, at the Clarendon Press 1967.
- Guitteau, William: The History of United States.
- Hoskins, H.L.: British Routes to India, London, Longmans Greau, 1928.
- Hunter, F.M.: an Account of the British Settlement at Aden, London, Trubner and Co., 1877.
- Ingrams, H.; The Yemen, Imams , Rulers and Revolutions, London, Camelot Press.
- Jacob, H. Kings of Arabia, London, Mills and Boon, 1923.
- Karsten Niebuhr: Beschreibung Von Arabian, Copenhagen, 1772
- Kirk, G.E.: A short History of the Middle East, New York, 1960.
- Little, T.: South Arena of Conflict: London, Pall Mall, 1968.

- Marston, T.E.: Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, 1800-1878. The Shoe String Press, Inc. Hamden, Connecticut, U.S.A.
- Playfair, R.L.: A History of Arabia, Felix or Yemen, Bombay, Government central Press, 1859.
- Pratt, J.W.: A History of United States Foreign Policy, Second Edition; Prentice Hall.

ج - الدوريات : Periodicals

- American Historical Association, A.H.A. Pamphlets, No. 222.
- The Middle East, A Political and Economic Survey, 1958.

